دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

ابن الرومي

علي بن العباس بن جريج

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٦٩ هـ = ١٩٤٩ م

منشورات مكتبة منيمنه - بيروت - المعرض

دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

— ٥ —

ابن الرومي

علي بن العباس بن جريج

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٦٩ هـ = ١٩٤٩ م

منشورات مكتبة منيمنه - بيروت - المعرض

الطبعة الثانية
٢/٢٠٠٠/١٢/٤٩

بيروت
١٣٦٩ هـ = ١٩٤٩ م

الكلمة الاولى

في ايامنا نفر متأدبون كلما رأوا في الادب العربي حسنة بارعة نسبوها الى بيئة غير عربية ، وتمحلوا لذلك الاعذار وتعلقوا بالاوهام . من ذلك انهم وقفوا امام شاعرية عجيبة لابن الرومي فأحبوا ان يروا مصدرها في اليونان لا في العرب :

قال سليمان البستاني (الالياذة ١٥٥) : « وكأني بابن الرومي وفيه لمحة من كنيته . . . الى جرثومة في اصله او عرفانه ، كانت تحمله على تحدي هوميروس في كثير من اساليبه ومعانيه وتشبيهاته » . وقرأ عباس محمود العقاد هذا فبنى عليه فصلا تاماً من كتابه (ابن الرومي ٢٧٠ — ٣٠٩) وبعض فصل . وكذلك رأى بطرس البستاني ان يقول محتاطاً (ادباء العرب ٢ : ٢٩٤) : « ولعل اصله الاعجمي كان له يد في طول نفسه وميله الى وحدة الموضوع ، كما كان له يد في اتساق تفكيره ودقة معانيه . . . وخروجه الى اغراض جديدة كوصف الاخلاق والعادات وتصوير الاشخاص تصويراً سخرياً مضحكاً . . » ، اما الاستاذ المقدسي فلا يرى ان ذلك — وهو بلا شك من ميزات ابن الرومي البارعة — يرجع الى « يونانية » تميز ابن الرومي من اقرانه (امراء الشعر ٢٤١) .

لقد غفل البستانيان والعقاد عن طبيعة الاجتماع وفاتها كثير من حقائق التاريخ واسس الادب . ان « الوراثة العرقية » او « وراثة الدم » تؤثر في الاستعداد العام او في الذكاء الفطري وفي الصفات الجسمانية ، ولكنها لا تؤثر في اتجاه التفكير ولا في الانتاج الادبي[1] . ثم ان ابن الرومي نشأ في بيئة عربية يجهل اللغة اليونانية ، وكذلك ابوه ؛ ولم يكن من سبيل لاتصاله بالادب اليوناني القديم - او المتأخر - . وان عبقرية ابن الرومي لم تتكون الا كما تتكون كل عبقرية غيرها من عوامل في البيئة وعناصر الشخصية .

ان بعض المتأدبين عندنا تأخذهم حمية الانشاء فيندفعون في كتابة خيالية من غير تحقيق او اهتمام بما كتبه العلماء والباحثون وبما خلفته السنون من الوقائع .

ع . ف

---

(١) راجع بحوثاً قيمة للاستاذ ساطع الحصري في استعراض هذه النظريات ونقدها (مجلة التربية والتعليم ١ : ٣٧٦ ـ ٣٨٥ ؛ ٢ : ٣٥٦ ـ ٣٦٠ ، ٤٤٩ ـ ٤٥١)

المصادر والمراجع المهمة

ديوان – ك = ديوان ابن الرومي، اختيار وتصنيف كامل كيلاني، المكتبة التجارية، القاهرة (نحو ١٩٢٤).

ديوان – ش = ديوان ابن الرومي، مع شرح الشيخ محمد شريف سليم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١٧.

مختارات البارودي = مختارات البارودي لمحمود سامي باشا البارودي، اربعة اجزاء، القاهرة ١٩٢٧–١٩٢٩.

العقاد = ابن الرومي، حياته من شعره، بقلم عباس محمود العقاد، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية، القاهرة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨م.

العمدة = العمدة في صناعة الشعر ونقده، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الاولى، القاهرة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٤ م.

البيان والتبيين = البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م.

المقدسي = امراء الشعر العربي في العصر العباسي، للاستاذ انيس المقدسي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٣٦.

ابن خلكان = وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان تأليف احمد بن خلكان، المطبعة الميمنية ١٣١٠ هـ.

تاريخ بغداد = تاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

مروج الذهب = مروج الذهب المسعودي، باريس.

GAL — Geschichte der arabischen Literatur, von Carl Brockelmann, 2 Bde. Weimar. 1898,1902.

GAL Suppl. — Supplement baende zur GAL, 3 Baende, Leiden 1937-8.

Guest — Life and Works of Ibn er Rûmî, by Rhuvon Guest, London 1944.

Nicholson — Literary History of the Arabs, by R. A. Nicholson, London 1930.

موجز ترجمته

اصدر في اواسط القرن الهجريّ الثـاني دخل رجل روميّ (يوناني) اسمه غريغوريوس او جورجيوس[1] في الاسلام عل يد عُبَيْدِالله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي فألحقَ ولاءه من اجل ذلك ببني العباس ؛ ثم عرَّبَ اسمَه فكان جورجيس او جُريجاً . وقد عُرف جريج هذا — نسبة لاصله — باسم « الرومي »[2] . ولما وُلِدَ لجريجِ الرومي ولدٌ سماه « العباسَ » تيَمُّنا باسم الأُسرة التي دخل في ولائها . ثم ان العباس بن جريج تزوج امرأة فارسية — او يتصل نسبها بالفرس، اسمها حَسَنَة — فولدت له ، فيما نعلم ، ابنين : محمداً وعلياً ؛ وابنة . ويهمنا في هذا المقام عليٌّ ، لانه اصبح فيما بعد من أشعر شعراء العربية ، بل من اشعر الشعراء قاطبةً .

ولد علي بن العباس (ابن الرومي) يوم الاربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رَجَبَ (٢ رجب) سنة ٢٢١ (٢١ حزيران ٨٣٦) ببغداد في الموضع المعروف بالعَقيقة ودرب الخُتَّلية في دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور[3] .

والواقع اننا لا نَعرِفُ عن حياة ابن الرومي قدراً يتفق مع شهرته، فالاصفهاني لم يترجم له في الاغاني بل ذكره مرتين عرضاً[4] مع انه ترجم لبعض معاصريه كالبحتري، الذي توفي بعد ابن الرومي بعام . وكذلك ذكره ياقوت في معجم الادباء ولم يترجم له ايضاً مع انه ترجم لبعض من سبقه ومن عاصره ومن تأخر عنه ، وترجم لبعض اساتذته وممدوحيه . ويريد العقاد (ص ٦) ان يتهم الاصفهاني بانه تعمد اهمال الترجمة لابن الرومي . . . ومع كل هذا الاهمال فابن الرومي لم يكن خاملا لا في

---

(١) GAL, Supl. I 123

(٢) مروج الذهب — باريس — ٨ : ٢٣٠ ؛ معجم الادباء ١٨ : ١١٤

(٣) ابن خلكان ٢ : ٤٩٩

(٤) ذكر كتاب الاغاني (طبعة بولاق) ان ابن الرومي سرق معنى من معاني ابراهيم بن العباس (٩ : ٢٩) . وكذلك استشهد ببيتين قالهما ابن الرومي لما قبض الخليفة الموفق على سليمان بن وهب وابنه (٢٠ : ٧٢) .

حياته ولا بعد موته، نَعرِفُ ذلك من كَثرةِ اَستشهادِ النُّقَّاد بشعره و إعجابِهِم بمعانيه، وأنّه كان في من غطَّوا على الشعراء بشهرتهم [1] .

طلب العلم وطلب ابن الرومي العلم طَلَبَ مجتهدٍ في تحصيله ، فقد عُنِيَ بعلوم العربية كالنحو واللغة والادب وبالعلوم العقلية والطبيعية، وألَمَّ باخبار الفلاسفة وبعض مذاهبهم وبعلم الكلام . ولكن من التمَحُّل البعيد ان ننسب له معرفة باللغة اليونانية او الفارسية . وكذلك من الصعب ان نعلم اسماء اساتذته على الحصر . ولكن ياقوت ذكر في معجم الادباء (١٨ : ١١٤) أن عليَّ بنَ العباس الروميَّ - شاعرنا - كان يختلف الى محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) لان محمداً كان صديقاً لابيه العباس بن جورجيس، وكان محمد يخص علياً (بالعناية) لما يراه من ذكائه . فحدث ابن الرومي عن محمد بن حبيب ، انه كان اذا مر به (يعني بابن الرومي) شيء يستغربه ويستجيده يقول له محمد : يا ابا الحسن ، ضع هذا في تامورك [2] .

زواجه وولده تزوج ابن الرومي مرتين ، ورزق من زواجه الاول - فيما يظهر - ثلاثَةَ بَنِينَ : هِبَةَ الله ومحمداً ، وثالثاً لم يُذكر اَسمُه في الديوان . وقد تُوُفِّيَ أثنان منهما او ماتوا جميعاً ثم ماتت امهم قبل موته هو . وتزوج ابن الرومي ثانيــة ورزق اولاداً آخرين [3] .

ثروته وحاجته لم يكن ابن الرومي في اول امره فقيراً بل كان يملك دوراً متعددة وضَيعَةً وأثاثاً فيه أشياءُ ثمينةٌ ولكنه خسر هذه كلها ، فيما بعدُ ، واصبح مُعْدِماً : لقد اتى الحريق على إحدى دوره، وغَصَبَ بعض جيرانه من المتنفذين في الدولة بعض اراضيه ودوره . ثم ان الاسعار في ايامــه كانت فاحشة وكان هو نَهِماً مُسرفاً في الانفاق على المطاعم والمشارب فركبه دَيْنٌ ذهب بما بقي من املاكه وأثاثه . اضف الى هذا كله انه كان قليل الحظ فلم ينل على مدائحه الا القليل ، واحياناً لم ينل عليها

---

(١) العمدة ١ : ٨٢ - ٩٣ ، ٩١

(٢) في وعائك : احفظه .   (٣) راجع العقاد ٩٢ - ٩٦

شيئاً قط . من اجل ذلك كله عاش ابن الرومي عيشة ضنكاً لا يجد احياناً ما يطعم اولاده ، ولا ما يدفع منه اجرة مسكنه [١] .

تطوافه القليل كان ابن الرومي يؤثر البقاء في بغداد ، مع انها لم تبق في ايامه عاصمة الامبراطورية الاسلامية العظيمة ، لقد كانت العاصمة قد نقلت الى سامرا .
ولقد قنع ابن الرومي بان يمدح من بقي في بغداد نفسها ، فمدح ابا العباس محمد بن عبدالله ابن طاهر والي بغداد ، ولكنه لم ينل حظوة عنده ولا ظفر منه بنوال ، فانقلب يعاتبه ويهجوه :

مدحت ابا العباس أطلب رِفدَهُ فخيَّبني من رفده وهجا شعري .
اذا حسنت اخلاق قوم فبئسما خلفتمْ به أسلافكم ، آلَ طاهر .
جَنَوْا لكم ان تُمدَحوا وجَنَيْتمُ لموتاهمُ ان يُشتموا في المقابر .

ومع كره ابن الرومي للاسفار فقد تطوف بالارض تكسباً بشعره فزار سامرا وسكنها مدة ، وزار الأُبُلّة وبعلبك (العقاد ١٨٠) وواسط ايضاً فذاق المشاق ولم ينل حظوة عند احد فقال :

أذاقتنيَ الأسفارُ ما كرَّهَ الغِنى إليَّ وأغراني برَفض المطالب .
لقيت من البَرّ التباريحَ بعدما لقيتُ من البحر ابيضاضَ الذوائب .
* لقد أنكرتني بَعْلَبَكُّ واهلُها بل الارضُ بل بغدادُ صاحبةُ البَتْل [٢] .
* غريبٌ له نفسان: نفسٌ بواسطٍ ، ونفسٌ بسامرّا بكفّ حبيب

صفته كان ابن الرومي ضعيف الجسم نحيلاً فيه بعض الطول . ولقد تقوّسَ ظهره لما تقدمت به السن وكان صغير الرأس يلبس عِمامة . وكان ذا لحية قصيرة ولكنها كَثّة (كثيفة) . وقد أدركه الشيب في رأسه ولحيته باكراً ، وكذلك أدركه الصَّلَع . وكان ابن الرومي يكره خضاب شعره فتركه ابيضَ ، ولكنه كان في

---

(١) يعدد Guest بعض اوجه دخله وانفاقه (ص ٤٩ — ٥٠) ، ثم يستشهد على اكثر ذلك من شعره (ص ١٢٢ — ١٢٤) .

(٢) كذا يرويها العقاد (ص ١٨٧) بتقديم الباء الموحدة من تحتها على التاء المثناة من فوقها ، ولعلها التبل بتقديم التاء المثناة : العداوة والثأر والاسقام .

اول الامر يستأصل الشَّعَراتِ التي تَبْيَضّ ثم أضربَ عن ذلك ايضاً . وكان وَسِخَ الثوب .

وفاته ابن الرومي قتله الهجاء[1] .

وتوفي ابن الرومي مسموماً بايعاز من القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بسبب فحش لسانه ونيله من الناس جميعاً ومن القاسم على الاخص[2] . وقد رَوَوا في طريقة وضع السم له روايات مختلفة . الا ان السم وحده لم يقتله ، ولكن الطبيب الذي كان يعالجه أخطأ — عمداً او سهواً — في علاجه حتى ظن ابن الرومي ان ذلك قتله ؛ فقال وهو يجود بنفسه (تاريخ بغداد ١٢ : ٢٦) :

غَلِطَ الطبيبُ عليَّ غلطةَ مورد   عجزَت موارده عن الإصدار .
والناس يَلْحَون الطبيبَ ، وإنما   غلط الطبيب إصابةُ الأقدار .

وكانت وفاة ابن الرومي ببغداد يوم الاربعاء ايضاً لليلتين بقيتا من جُمادى الاولى عام ٢٨٣ على الاصح و ١٤ حزيران ٨٩٦ م .

عناصر شخصيته

اصله وشعوره القومي ابن الرومي يوناني من جهة الاب فارسي من جهة الام ، ولكنه لم يكن فيما يظهر من اسرة رفيعة في أحد الشعبين . من اجل ذلك لم يكن له مبرر للافتخار بنسبه القريب ، واكبر الظن انه لم يفعل في اول الامر .

على انه يظهر من ديوانه ان بعض العرب كانوا يعرّضون بنسبه الرومي ويطعنون بذلك على أدبه ، فاستفزوه بعملهم هذا[3] فقال :

قد تُحسِنُ الرومُ شِعراً   ما أحسنته العُرَيبُ !
يا مُنكِرَ الفضلِ فيهم :   أليسَ منهم صُهيبُ[4] ؟

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٥٠٠ ؛ العمدة ١ : ٥٦ .
(٢) مروج الذهب ٨ : ٢٣٠
(٣) العمده ١ : ٦١   (٤) صهيب بن سنان من كبار الصحابة ، وكان رومياً .

ويظهر انه بعد هذا مضى يعدد فضل الروم كثيراً وفضل الفرس قليلاً . ثم بالغ في ذلك فجعل ينتسب الى ملوك اليونان ، غروراً من عند نفسه ، ويعرّض قليلاً بالبدو :

آبائيَ الرُّومُ تُوفِيلٌ وتَوفَلَسٌ — ولم يَلِدْنِيَ رَبْعيٌّ ولا شَبَثُ .
إنْ لم أزُرْ مَلِكاً أشجيه الخطوبَ به — فلم يَلِدْني ابو الاملاكِ يونانُ !

على انه ظل يذكر فضل بني العباس ويفتخر بالولاء اليهم :

قومي بنو العباس ، حِلمُهُمُ — حلمي ، كذاك وجهلهم جهلي .
مولاهمُ وغَـذِيُّ نِعمتهم — والروم — حين تَنُصُّني — اصلي .

وعلى هذا لا نرى في شعر ابن الرومي شعوبيةً ذات أثر ، وإن كان قد اضطُرَّ الى ان يكونَ احياناً شعوبيَّ اللسان ، كما كان ابو نوَاس من قبله ايضاً ، رداً على العرب انفسهم من الذين عرَّضوا بنسبه وعابوا شعره من اجل ذلك .

دينه وعقيدته ابن الرومي مسلم لا سبيلَ الى الشك في صحة إيمانه وإسلامه . ولكنَّ هنالك أمرين يجب ان نجلوهما ونرى مدى نسبتهما الى ابن الرومي حتى نستطيع ان نستبينَ اثرهما في شعره :

(١) الاعتزال = كان الاعتزال غالباً في العصر الذي شهده ابن الروميّ ؛ وقد دلَّنا ابنُ الرومي في شعره على انه مُعتَزِليٌّ : يقدم العقل على النقل ، ويقول مع القَدَرية بان الانسان مُخَيَّرٌ يعمل الخير او الشر مختاراً ويُجازى بهما ضرورةً . هذا اعتقاد ابن الرومي ، وقد يكون ثمت من يكرهون الاعتزال ، ولكن هذا موضوع آخر .

(٢) التشيع = قال المعري في رسالة الغفران ان البغداديين كانوا يَدَّعون بأن ابن الرومي مُتَشَيِّعٌ ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية :

أمامَكَ فانظُرْ أيَّ نهجيكَ تَنهَجُ . — طريقانِ شتّى : مُستقيمٌ وأعوجُ !
الا أيُّهذا الناسُ طال ضَريرُكم — بآلِ رسول الله فاخشَوا أوِ ارتَجوا .
أكُلَّ أوانٍ للنبيِّ محمدٍ — قتيلٌ زكيٌّ بالدماء مُضرَّجُ ؟

أبعد المكنَّى بالحسينِ شهيدِكم (١) تُضيءُ مَصابيحُ السماءِ فتُسْرَجُ ؟

ولكن المعريَّ يزيد فيقول : « ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء » . ولكن العقاد (٢) يعجب من ذلك : كيف يكون الرجل مُتَشَيِّعاً ولا يكون شِيعيًّا ؟

لقد أصاب المعريُّ وأخطأ العقادُ : فإن ابن الرومي كان متشيعاً على مذهب اكثر الشعراء العباسيين يَألمُ لمصائب آل البيتِ ، ولم يكن شيعياً يقول بان الامامة (الخلافة) انما هي في ابناء علي بالنَّص (٣) . اضف الى ذلك ان ابن الرومي نشأ في ولاء بني العباس هو وابوه وجده ، ونشأ في الحي الذي يسكنونه في بغداد فلم يكن ممكناً ان ينشأ على المذهب الشيعي .

ثم يظهر ان بعضهم قد رمى ابن الرومي بالزندقة ، كما كان غير ابن الرومي قد رُميَ بهذه التهمة من قبل ومن بعد . ويبدو ان بعضهم قد بالغ فزعم ان ابن الرومي لا يدين بدين ، كاحمد بن ابي شيخ مثلا . ولقد رد الشاعر التهمة مدافعاً عن نفسه ومُقِرًّا بانه يدين بالاسلام . قال :

يا ابنَ حسَّانَ ، لا تَشُكَّنَّ في ديـ ـني ولا تَقْتَسِمْكَ فيَّ الظنونُ ؛
فهْوَ توحيد ذي الجلالِ وتصديـ ـق الذي بلّغ الرسولُ الامينُ (٤) .

ضعفه لقد رأينا (ص ٧) ان ابن الرومي كان ضعيف الجسم ، فكان لذلك تأثير في اتجاهه في الحياة .

ثم ان الرجل كان مضطربَ الأعصاب ، لا شكَّ في ذلك ، فقد كانت تغلب عليه السَّوْداء ، فلا يملك أعصابه في كل موقف . من أجل ذلك ظهر عليه ثلاثةُ مظاهرَ أثَّرَتْ في حياته وشعره تأثيراً كبيراً : الطِيَرَةُ ، والتَّشاؤمُ ، او النِظْرَةُ القاتمةُ الى الحياة ؛ ثم كُرْهُ الاجتماعِ بالناس .

---

(١) لاحظ : شهيدكم .
(٢) ابن الرومي ٢١٠ ، ٢١٢ — ٢١٧ .
(٣) راجع ابو نواس ١ : (ط ٣) ٤١ — ٤٢
(٤) Guest 12, 76-77

أ — الطيرة : ذكر ابن رشيق (العمدة ١ : ٥٣) ان ابن الرومي كان كثير الطِيَرَة : ربما اقام المدة الطويلة لا يَتَصرَّف تطيُّراً بسوء ما يراه او يسمعه ، حتى ان بعض اخوانه من الامراء افتقده فأُعلِمَ بحاله في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه إقبالٌ ليتفاءلَ به . فلما اخذ (ابن الرومي) أُهبَتَهُ الركوب قال للخادم : انصرِفْ الى مولاك ، فانت ناقصٌ ، ومنكوسُ اسمِك : (لا بقا) . وابن الرومي كان يأخذ بالطيرة (ديوان — ك ، ١٧٢ — ١٧٣)

أيّها المُحتفي بحُولٍ وعُورٍ ، ... أينَ كانت عنكَ الوجوهُ الحِسانُ ؟
فتجُكَ المَهرجانَ بالحُولِ والعُو ... رِ أرانا ما أعقَبَ المهرجانُ :
كان من ذاك فقدُكَ ابنتَك الحُرَّ ... ةَ مصبوغةً بها الأكفانُ ،
وتجافى مؤمَّلٌ لي خليلٌ ... لَجَّ منه الجفاءُ والهِجرانُ .
لا تَهاوَنْ بطِيَرَةٍ ، أيّها النَّظَّا ... رُ ، واعلَمْ بأنّها عُنوانُ .
قِفْ إذا طِيَرَةٌ تلقَّتْكَ وانظُر ... واستَمِع ثمَّ ما يقولُ الزمانُ .
قلّما غابَ من امورك عنوا ... نٌ مُبينٌ ، والزمانُ لِسانُ .

وعَرَفَ الناس منه ذلك ، فكان علي بن سليمان الاخفش مثلا يعبث بابن الرومي — لما يعلم من طيرته — فيرسل اليه من يقرع الباب عليه بُكرةً ويتسمى له بأقبح الاسماء ، فيمنعه ذلك من التصرف طُولَ يومه (العمدة ٢ : ١٦٠) .

ولقد حمله تطيره هذا على ان يلزم بيته اياماً ولا يسعى في كسب قوته وقوت عياله حتى كان الجوع احياناً يَضُرُّ بهم جميعاً .

ب — تشاؤمه . القاموس يجعل الطيرة والتشاؤم شيئاً واحداً ، ولكني اود هنا ان أترُكَ الطيرة للحوادث الفردية الحاضرة واخص التشاؤم بالنظرة القاتمة الى مستقبل الحياة . ان ابن الرومي يبدو في كثير من ابياته كارهاً للحياة ، ثم هو لا يرى في الدنيا اكثر من « طريق » ، الى الآخرة ، فتراه لا يُبالي بالدنيا وما فيها :

* أبَتْ نفسي الهلاعَ[1] لرُزءِ شيءٍ ، ... كفى شَجواً لنفسي رُزءُ نفسي .

(١) الهلع بفتح اللام : اشد الجزع . الهلاع بضم الهاء : الجبن عند لقاء المصائب .

أتهلعُ وَحشةً لفراقِ إلفٍ وقد وطّنتُهـا لحلول رَمْسِ ا

* اذا اختطَّ قومٌ خِطةً لمدينةٍ تقاضتْهم أضعافَهـا المقابرِ .

وفي ذاك ما ينهاهمُ ان يُشيِّدوا وأن يتّخذوا إلا كزادِ المسافرِ .

* (فقل لغريب الدار : إنكَ راحلٌ الى منزلٍ داني المَحلِّ سحيقِ) .

وما تُعدِمُ الدنيا الدَّنيَّةُ أهلَها شُواظَ حريقٍ او دُخانَ حريقِ .

فلا تحسَبِ الدنيا إذا ما سلكْتَها قراراً ؛ فما دنياكَ غيرُ طريقِ .

هذه هي النظرةُ الغالبة في شعر ابن الرومي ، وان كنتَ أحياناً تجدُ له حثّاً على التفاؤل (ديوان ١٠٦) :

لا تقصِدَنَّ لحاجـةٍ الا أمرأً فرِحاً بنفسهْ .

أنّى يُسَرُّ بمدحِـهِ من لا يُسَرُّ بضوء شمسه !

جـ — غروره : ليس عيباً أن يغترّ القوي ، في كل شيء ، بنفسه . ولكن الغرورَ يصبح عيباً في المظهر الذي يظهر به ابن الرومي في شعره ، فهو يشكو ابداً من إدبار الدنيا عنه وإقبالها على من هم أقلُّ قيمةً ولكن اكثرُ حظاً (ديوان ١٢٠) .

فليطِرْ معشرٌ ويَعلُوا فإني لا أراهم إلا بأسفل قابِ [(١)]

جيَفٌ أنتنَتْ فأضحَتْ على اللُّجّـ ـةِ ، والدُّرُّ تحتها في حِجابِ .

وغُثاءٌ علا عُباباً من اليمّ ، وغاص المَرجانُ تحت العُبابِ [(٢)] .

ورجـالٌ تقلّبوا بزمـانٍ أنا فيه وفيهمُ ذو اغترابِ .

ولا ريب في ان الغرور — الذي يكون من هذا النوع — دليلُ ضعفٍ عَصَبيٍّ وخيبةٍ في الحياة .

د — نَهَمُهُ : ومن مظاهر الضعف في ابن الرومي نَهَمُهُ وحُبُّهُ المأكلَ على غيرِ هدىً : كان كثيرَ الطعام رديءَ التناولِ له جشِعاً في تطلُّبِ أنواعه . وكان كثيراً

---

(١) القاب جمع قابة : الحفرة .

(٢) الغثاء : ما يحمله السيل من الاوساخ . العباب : الموج او معظم السيل .

ما يُصاب بالتُّخَمَةِ والمرض . ثم هو لا يَتْرُكُ نَهَمَهُ :

* أإن اصطبغتُ وأُدْمِي مَعضوضة   أنشأت تهجوني بذلك ظالما [١]

عيبٌ لَعَمْرُكَ ، غيرَ أنْ لم آتِهِ   عمداً ! فهبني هافِياً لا جارما [٢]

* ذريني ، قسطنطينَ ، آكلُ شهوتي   وتَبْشِمني ؛ اني بذلك راضِ .

فأكثرُ ما القى من الزادِ كِظّةً   مَدى يومها ، واليومُ أسرعُ ماضِ !

* لهفي عليهـــا ، وأنا الزعـــيمُ   بِمِـدةٍ شيطانُهـــا رجـــيمُ .

وابن الرومي لا يكره شيئاً من الطعام ، فهو يحب السمك والفواكه ، ويحب الحلوى ويحب كل ما يدخل الى الجوف ثم يسرف في حبه . ولقد اثر نهمه في صحته فأساء اليها ، ثُمَّ اثر في اعصابه ايضاً .

سوء مخالقته كان ابن الرومي سيئ المخالقة ، لم يحسنْ معاشرة الذين اتصل بهم في الحياة . لقد كان — بالاضافة الى كل ما تقدم من عناصر شخصيته شديد الصراحة بينما كان يحتاج في مخالقة الامراء الى شيء من الرياء ؛ وكان مغروراً بنفسه بينما كان طلب المعاش في زمانـــه يحتـــاج الى تملق وتذلل . ان ابن الرومي لم يستطع ان يجاريَ عصرَه — وان كان عصره يومذاك فاسداً — انه لم يعرف كيف يداهن ولا كيف يخاتل ولا كيف يداري فلم يستطع من اجل ذلك بلوغَ مأربهِ في الحياة .

وكان في ابن الرومي جُبنٌ اجتماعيٌّ ، كان لا يُقدِمُ على معاشرة الناس في مجتمعهم ، يلهو معهم او يتحدث اليهم في الموضوعات المُبتَذَلَة التي تسود الناسُ مثلها في مجتمعهم . اضف الى هذا كلِّه انه كان شاذَّ الاطوار غريبَ الاحوال مما نفَّر الناسَ عنه وبغَّضه اليهمْ وجعلَهُمْ لَهُ أعداء . وكان فوق هذا طويل اللسان لا يَتَحَوَّبُ مِن أن يتناولَ كلَّ إنسانٍ بلسانه ، وهكذا خافه اصدقاؤه انفسهم وكَثُرَ اعداؤه .

رأيه في الحياة لما تقدمتِ السن با بن الرومي تَبَدَّلَ نظره الى الحياة ، ولكن

---

(١) العقـــاد ١٢٣ . اصطبغ : أكل بالصبغ (الأدام : السمن) والمقصود بالشطر الاول : والى اللقم ، وضع اللقمة في فمه قبل ان ينتهي من مضغ التي قبلها .

(٢) هفا : أخطأ ، سها . جرم وأجرم : أذنب .

بعد ان بدأت الحياة نفسُها تُعرِض عنه . بدأ ابن الرومي حياته بكثير من الجِدّ والرزانة ومن التصلُّب في مقاييس السلوك وآدابِ المعاشرة الى حد النفور من الناس والسُخْط عليهم (ديوان ٤٢٧ ، ٥٣ ، ٥٥) :

ترى الأقدام يمتلفون ثوماً ويغشَوْن المجالسَ كالهموم .
فشمّهم القوم مأثوم بجمرٍ وقدمُ القوم مأثوم بثومٍ .

* ذقتُ الطعومَ فما ٱلتذذتُ براحةٍ من صحبة الاخيار والاشرار
أمّا الصديقُ فلا أُحِبُّ لقاءه حَذَرَ التَّلي وكَراهة الأعوار .
واري العدوَّ قذىً فاكره قُرْبه فهجرتُ هذا الخلقَ عن أعذار .
أرِني الذي عاشرتَه فوجدتَه مُتغاضياً لك عن أقلِ عِثار .
من جَور إخوان الزمانِ سُرورُهم بتفاضلِ الأحوال والأخطارِ .
أأُحِبُّ قوماً لم يُحبُّوا ربهم إلّا لِفِردَوسٍ لديه ونار !

* ألا إنما الدنيا كجيفةِ ميّتٍ وطُلّابُها مثلُ الكلابِ النواهس .
وأعظمُهم ذمّاً لها وأشدُّهم بها شَغَفاً قومٌ طِوال القلانس[1] .

وهذا طبيعي في رجل مثل ابن الرومي أساء اليه الدهر بالمرض والفقر وبالثكل وقلة الحظ وبالقبح ايضاً . ثم ان ابن الرومي تعود هذه المصائب وأَلِفها ، وصرفه « الوجع » الحاضر عن التأمل بالاوجاع الماضية . ولكن يظهر ان الدهر رفع سوطه عن ابن الرومي قليلا فرَجَعَ ٱبنُ الرومي البَصَرَ في الحياة كرَّتَينِ ورأى فسادها وفساد اهلها ، ولكنه أدرك – الآن – أنْ لا سبيلَ الى إصلاحها ولا الى اصلاحهم . ثُمَّ ايقن ان الحكمة العملية في الحياة انما هي «الاندفاع مع التيار» ؛ فحمله أسفُه على ماضيه ويأسه من حاضره وجهلُه المستقبلِ ان يَضِجَّ مع الضاجّين ويُسِفَّ معهم كما يُسِفُّون حتى يتسلّى عن مصائبه :

لاح شيبي فرُحتُ أمرحُ فيه مَرَحَ الطَرْفِ في العِذار المحلّى[2] .

---

(١) القلنسوة اصبحت في ايام ابن الرومي لباساً رسمياً للرأس ، وقد تزيى به طلاب الدنيا .
(٢) سرور العين بالنظر الى الخد الجميل .

وتولّى الشبابُ فازددت رَكْضاً   في ميادين باطلي إذ تولى .

إن من ساءه الزمانُ بشيء   لأحقُّ امرىء بأنْ يتسلّى !

وقد ظل ابن الرومي يعتقد بان الحظ يحابي اقرانه ويجافيه، حتى انه قال في آخر قصيدة نظمها (ديوان ٤٦٨) — او هي من آخر ما نظم (ديوان ٤٦٩) :

وإنني لأرْجي أنْ يُصبحني   سعدُ السعود بحظ منه مُقتبلِ !

منزلته العلمية : شهد ابن الرومي عصراً كان الاديب لا يسمى فيه اديباً الا اذا اخذ من كل علم بطَرَفٍ، فلم يكن بِدْعاً أنْ يسير ابن الرومي على هذا. ولكن يظهر ان ابن الرومي لم يكتف بالاِطلاع على فنون العلم ، بل ثارت في نفسه رَغْبَة للعلوم العقلية والجدلية على الاخص (ديوان ٤٦٩) :

لكنْ لأمرٍ خفيٍّ لا يُحيط به   علمي، «وان كنتُ ذا علم وذا جدل» .

فهو من هذا القبيل اذن اشبه ببشار وابي نواس وابي تمام والمتنبي ، من الشعراء الذين درسوا العلوم ثم تركوا اثاراً منها كثيرةً أو قليلة تظهر في اشعارهم ، ولكنهم لم يجعلوا منها نِظاماً فلسفياً ولا حاولوا ان يجعلوها « اغراضاً » في قصائدهم او «فنوناً» كابي العلاء المعري مثلا . الا ان تلك الاشاراتِ التي يشير بها ابن الرومي الى اسماء بعض الفلاسفة واسماء النجوم او الى مذاهب علماء الكلام (راجع العقاد ٩٦ وما بعدها) لا تكفي لعد ابن الرومي في العلماء ، ولكنها بلا شك تضمه الى بشار وابي نواس وابي تمام ، وتميزه من عمر بن ابي ربيعة والبحتري وابي فراس ، ذلك لأن ابن الرومي احياناً يتكىء على « علم الكلام » اتكاء ظاهراً (ديوان ١٢٨) :

الخيرُ مصنوعٌ بصانعه ؟   فمتى صنعتَ الخير أعقبكا [1] .

والشر مفعول بفاعله ؟   فمتى فعلت الشر أعطبكا [2] !

---

(١) اعقب هنا : افاد .

(٢) أعطب : أهلك .

خصائصه الفنية

ابن الرومي من الشعراء الذين تعاطَوْا فنوناً غير الشعر ، فانه تعـاطى النثر[١] والترسل والخطابة والفلسفة[٢] فهو من هـذه الناحية مثل بشار والهمذاني وشوقي على اختلاف بينهم . الا اننا سنعرض هنـا لشعره فقط ، فابن الرومي كان عندنا شاعراً فحسب !

شاعر مطبوع ابن الرومي شاعر « مطبوع » يجري في قول الشعر على سجيته : « يُؤثِر » المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث يقع (معناه) من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته[٣] ، فهو لا يتكلف الصناعة ولا يطلبها . ثم انه يجول في جميع الاغراض التي تتفق في حياته وينطق — في غزله ومديحه وهجائه ورثائه — عما يشعر هو بـه ، غير متقيد بما يريده الممدوح مثلاً ولا بما تفرضه قيود الاجتماع . ومع انه يتناول كثيراً من المعاني ويطيل في معالجتها فإن آثار الكد او التكلف لا تظهر عليه ، وكأن شعره كلام مرسل لولا القافية والاوزان — على خفتها وسهولتها عنده .

واذا كان البحتري احسن ديباجة وأصح لغة وأقدر في الصناعة ، فابن الرومي احسن معانيَ وأبيَنَ تركيباً وأجرى على السليقة في شعره . ان غير العربي يتأثر بشعر ابن الرومي اكثر مما يتأثر بشعر البحتري ، بل ان العربي وغير العربي معاً يجدان في ابن الرومي شاعراً صحيحاً ، حتى ذكر ابن رشيق[٤] ان ابن الرومي اولى النـاس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه . ولقد أبدى غست ملاحظة قريبة مما ذكرنا[٥] .

خصائصه المعنوية لا ينازع ابن الرومي في المعاني شاعرٌ آخر ، فهو شاعر المعاني ، يؤثر المعنى على اللفظ . ثم انه « كان . . . ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد

---

(١) Guest 90 (٢) راجع ديوان ١٤٨ (٣) العمدة ١ : ١٠٦ . (٤) العمدة ١ : ٢٥٥ . (٥) Guest 59 - 60

فيولده : فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن ويصرّفه في كل وجه والى كل ناحية حتّى يميته ويعلم انه لا مطمع فيه لاحد[١] . ولا يكتفي ابن الرومي بتناول المعاني المشهورة الشائعة « بل يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها »[٢] .

(١) التوليد والاختراع = المخترع من الشعر هو ما لم يُسبَقْ اليه قائله ، ولا عمل احد من الشعراء قبله نظيره او ما يقرُب منه ؛ ... والتوليد ان يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، او يزيد فيه زيادة ؛ ... واكثر المولدين اختراعاً وتوليداً – فيما يقول الحُذاق – ابو تمام وابن الرومي »[٣] . اما ابن رشيق نفسه فيفضل ابن الرومي اذ قال[٤] : اما انا فأقول ان اكثر الشعراء اختراعاً أبن الرومي .

ودافع ابن رشيق عن هذا فقال (١ : ٩٦ ، ٧٤) : « وإنما سُمّيَ الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لا يشعر به غيره . فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استظراف لفظ او ابتداعه ، او زيادة في ما اجحف فيه غيره من المعاني ، او نقصٌ مما اطاله سواه من الالفاظ ، او صرف معنى الى وجه عن وجه آخر ، كان اسم الشّاعر عليه مجازاً لا حقيقة ؛ ولم يكن له الّا فضل الوزن ، وليس عندي بفضل مع التقصير .. وانما السبق والشرف معاً في المعنى على شرائط ... »

(٢) الغموض = ان تطلب ابن الرُّومي المعاني وتقليبها على جميع وُجوهها الممكنة ترك عليها شيئاً من الغموض ، اما لبعد ما يتخيله ابن الرُّومي او لحمل هذه المعاني على غير المألوف (ديوان ١٠٠ – ١٠١) :

قد مَلِلْنا من سَتر شيءٍ مليحٍ   نَشْتَهيه ؛ فهل له تجريدُ ؟
هُوَ في القلب ، وَهوَ أبْعَدُ من نَجمِ الثُّرَيَّا ، فهو القريبُ البعيد !

وَأحياناً يلجأ ابن الرُّومي الى الاشارات التاريخية فيتعذر فهم ما يقول على بعضهم (ديوان ٢١) :

---

(١) العمدة ٢ : ٢٢٦   (٢) ابن خلكان ٢ : ٤٩٩   (٣) العمدة ١ : ٢٣٢–٢٣٥
(٤) العمدة ٢ : ٢٣٢

من كل قاتلةٍ قتلى وآسرةٍ أسرى (وليس لها في الارض إثخان)[1]

(٣) اغراضه = اغراض ابن الرُّومي كثيرة، حتى لو قيست بأغراض ابي نواس: لقد تناول ابن الرُّومي بالمعالجة والتحليل اغراضاً ورد بعضها عند الشعراء عرضاً ولكنها برزتْ في شعره بروزاً عظيما حتّى ليصحُّ ان يقال انه اوّل من كشف عنها : الشيب، الشطرنج، الغناء، الحسد، الحقد، قوس قُزَحَ، المآكل بانواعها؛ ولقد زاد ابن الرومي في الشعر ناحية جديدة : انه وصف الواناً من البيئة الاجتماعية الدنيا كوصف قالي الزّلابية، او صانع الرقاق (الخبز) او وصف البؤس الذي عاناه؛ بينما نجد شعراء العرب عامة لا يهتمون الا بتصوير اغراض الحياة السامية : الشجاعة والكرم، النعيم والترف، الحرب والقصور .

ويمتاز ابن الرومي بميله الى استيفاء اغراضه في مكان واحد او في امكنة متعددة، ولا غَرْوَ فذلك ميله الى توليد المعاني بعضها من بعض وتقليبها ظهراً لبطن . على ان الانصاف في شأن الرجل ان نقول انه كان يذهب الى ابعد من ذلك . ان الناحية الفكرية كانت تغلب عليه فيتناول اغراضاً معينة بالمعالجة الايجابية، حتى بالغ العقاد فقال (ابن الرومي ٣١٦) غير محتاط :« . . . خرج (ابن الرومي) عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة ابياتاً متفرقة يجمعها سمط واحد قلَّ ان يطرد فيه المعنى الى عدة ابيات وقلّ ان يتوالى فيها النسق توالياً يستعصي على التقديم والتأخير . . . وجعل القصيدة « كُلًّا » واحداً لا يتم الا بتمام المعنى الذي اراده على النحو الذي نحاه ؛ فقصائده « موضوعات » كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤدّاها وتفرغ جميع جوانبها واطرافها . . . »

ولقد رد الاستاذ المقدسي على ذلك أحسن رد[2] فرأى ان الحكم العام صحيح ولكن العقاد يبالغ في نفي « استيفاء الغرض » عن المتقدمين وحصرِه في ابن الرومي فيذكر لنا رائية عمر، ومرثاة ابي ذؤيب الهُذَلي وخمريات ابي نواس ووصف الايوان

(١) القرآن الكريم ٨ : ٦٧ (سورة الانفال). (٢) راجع امراء الشعر ٢٤٠ــ٢٤١

للبحتري، ثم يدل على قصائد لابن الرومي جمعت اغراضاً متفرقة ويضرب على ذلك مثلاً قصيدة ابن الرومي :

شاب رأسي ، ولاتَ حينَ مَشيب ؛ وعجيبُ الزمانِ غيرُ عجيب .

فان فيها وصفاً للشيبِ ومديحاً متعددَ النواحي . . .

(٤) الوصف الحسي = الوصف الحسي فن عباسي برع فيه ابن الرومي ايضاً .

وليس الوصف الحسي ان تصف أشياءَ محسوسةً كالبحر وزِق الخمر أو إحدى آلات الغناء . ولكنَّ الفن الشعري يقتضي أنْ تمثل الموصوف المحسوس كأنه هو ، وان تجعله بوصفك إياه يتحركُ في خيال القارىء او السامع : يعني ان تنوبَ كلماتُ الشاعرِ مَنابَ عيون القارىء . وللوصول الى صحة الوصف الحسي تحتاج القصيدة الى عناصرَ خمسةٍ :

(أ) تَناوُل الدقائقِ في الموصوف لأنها هي التي تميز الشيء من اخيه ؛

(ب) الشُمول بحيث لا يكتفي الشاعر بذكر بعض الدقائق بل يذكر اكثَرَها ما أمكن ، وإلا كانت الصورة ناقصةً تختلط بغيرها ؛

(ج) التَسَلْسُل المَنطِقيّ ، وهو ان يَتَّبِعَ الشاعرُ في الوصف تَسَلْسُلًا تقتضيه طبيعةُ الموصوف حتى يستطيعَ الفِكرُ حُسْنَ تَخَيُّل ذلك الموصوف ؛

(د) الإيهام ، وذلك أننا في الأعمّ الأغلبِ لا نستطيعُ ، لِأُمورٍ فنيةٍ ، ان نذكر كل دقيقةٍ وجليلةٍ في الموصوف ، فنذكر حينئذٍ ألفاظاً مشهورةً وتشابيهَ مُتَعارَفَةً نجَسِّمُ بَعضَ نواحي الموصوفِ في خيالنا . فاذا قَصَدْنا أنْ نذكرَ ان شيئاً عظيمٌ غريبٌ قلنا مع البحتري في وصف البركة :

كأنَّ جِن سليمانَ الذين وَلُوا إبداعَها فأدَقُّوا في معانيها .

ويأتي اخيراً (هـ) سَعَةُ الخَيال وهو — في هذا المقام — أن يُحْسِنَ الشاعرُ الموازنةَ بين المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به وان يُجيد ذلك حتى لا ينصرفَ الفكرُ الى غير ما قَصَدَهُ

الشاعر فعلا ، يمثل ذلك كله وصفُ ابن الرومي قِيانًا يَعزفْنَ ويُغنّين (ديوان ٨٤ — ٨٥) :

وقيانٍ كأنها أمّهاتٌ … عاطفاتٌ على بَنيها حَوانِ .
مُطفِلاتٌ وما حَمَلنَ جَنيناً ، … مُرضِعاتٌ ولَسنَ ذاتَ لِبانِ ؛
مُلقِماتٌ أطفالَهن ثُدَيًّا … ناهداتٍ كأحسنِ الرُّمانِ .
مفعَماتٍ كأنها حافِلاتٌ … وهي صِفرٌ من دِرّةِ الألبانِ [1] .
كلُّ طِفلٍ يُدعى بأسماء شتّى … بين عودٍ ومِزهرٍ وكِرانِ [2] .
أمُّه دهرَها تترجمُ عنه ، … وهو بادي الغِنى عن التَّرجُمانِ .
غيرَ أنْ ليس ينطِقُ الدهرَ إلا … بالتزامٍ من أمِّه واحتضانِ .
أُوتِيَ الحُكمَ والبيانَ صبيًّا … مثلَ عيسى بنِ مريمٍ ذي الحَنانِ .
وتَغنّتْهُ بالمدائح فيه … كلُّ غيداءَ غادةٍ مِفتانِ
ذاتِ صوتٍ تَهزُّه كيف شاءت ، … مثلَ ما هزّتِ الصَّبا غُصنَ بانِ .
يَتثنّى فينفُضُ الطَّلَّ عنه … في تَثنِّيهِ مِثلَ حبِّ الجُمانِ [3] .
جَهْوَرِيٌّ بلا جَفاءٍ على السمـ … ـعِ مَشوبٌ بغُنّةِ الغِزلانِ .
فيه بَمٌّ وفيه زيرٌ من النغـ … ـمِ وفيه مَثالثٌ ومَثانِ [4]
فتراه يجل في السمع حيناً … وتراه يَدِقُّ في الأحيانِ .
يَلِجُ السمعَ مُستمِراً الى القلـ … ـبِ بلا إذنٍ لا ولا استئذانِ .
صِيغَ من طَبعِ صوتِها كلُّ لحنٍ … مَعها من لحون تلك الأغاني .
أعجَميٌّ ، آيينُهُ [5] عربيٌّ … مجدُه ينتمي إلى عدنانِ .

(٥) التحليل النفسي والعقلي=فاق ابن الرومي اقرانه في التحليل النفسي والعقلي ،

---

(١) مفعمات نعت متعدد مع ناهدات في البيت السابق. مفعم: مملوء. حافل: مملوء. صفر: فارغات
(٢) العود والمزهر والكران : آلات موسيقية .
(٣) الطل : حبات الندى . الجمان جمع جمانة : اللؤلؤة الكبيرة .
(٤) البم والزير والمثاني والمثالث من اسماء الاوتار في الآلات الموسيقية . يقصد ابن الرومي ان هذه المغنية تستطيع الإتيان بطبقات الغناء العالية والواطئة . (٥) راجع ص ٢٢ .

وهو اول من قصد الي ذلك قصداً ظاهراً . ليس « الصبر » مثلا عند ابن الرومي ناحية من نواحي الفخر او مظهراً من مظاهر المقدرة اللغوية، ولكنه « موضوع يتناوله ابن الرومي بالتحليل وبتبيان فعله في النفس واثره في الناس ؛ ثم يتفلسف فيه — نفسياً واجتماعياً وعقلياً — (ديوان ٣١٥)

هُوَ المَهْرَبُ المُنجي لِمَنْ أحدقتْ به — مكارهُ دهرٍ ليس منهن مَهْرَبُ .
لَبوسُ جمالٍ ، جُنَّةٌ من شَماتةٍ ، — شِفاءُ أسىً يُثْنَى به ويُثَوَّبُ .
وقد يَتَظَنَّى الناسُ أن أساهمُ — وصبرَهُمُ فيهِم طِباعٌ مُرَكَّبُ ،
وأنهما ليسا كشيءٍ مُصَرَّفٍ — يُصَرِّفُه ذو نَكْبَةٍ حين يُنكَبُ .
فان شاء أنْ يأسَى أطاع له الأسى ، — وإنْ شاءَ صبراً جاءه الصبرُ يَجْلُبُ[1] ،
ولكن ضَرُورِيّان كالشيء يُبتَلى — به المرءُ مَغلوباً وكالشيء يَذْهبُ[2] .

ولابن الرومي تحليلٌ مثل هذا في الحقد والحسد والمشيب . ويظهر التحليل بارزاً في رثاء ابن الرومي خاصة وفي بعض المديح وفي العتاب .

خصائصه اللفظية حينما نقرأ دواوين الشعراء القدماء والمُحدَثين ، بما فيهم بشّار وابو نواس والمتنبي والمعريّ ، نجد ان ثقافتهم اللغوية قائمةٌ على المعرفة الواسعة باللغة العربية وعلى التقيد بما روي عن اقحاح العرب . اما في ديوان ابن الرومي فنرى هذه الثقافة مضافاً اليها جراءةٌ عظيمةٌ في اختيار الفاظ يعبر الشاعرُ بها عن المعاني التي يريدها، وفي السلوك إلى تراكيبَ فيه كثير من الحرية للتعبير عن دقائق ما يجول في نفسه . وإنك لتجد شعره — أطال ام قَصُرَ — سهلاً عذباً يُعبر نفسَه للتعبير عن الاغراض الجديدة التي شاعت في العصر العباسي .

(١) الفاظه = الفاظ ابن الرومي فصيحة سهلة على العموم ، إلا أنّ ابن الرومي

---

(١) جلب هنا فعل لازم : (مسوقاً مع مشيئته للصبر).

(٢) الاسى والصبر ملازمان للمصيبة : يأتي الحزن مع المصيبة ثم يذهب بذهابها . وقد يأتي الصبر مع المصيبة اذا شاء الانسان ذلك .

مغرم بانواع من الالفاظ (اولها) الاكثار من الصيغ والمشتقات ؛ ولقد فطن لذلك العقاد (ص ٣٢٣) واستشهد بابيات منها :

* صاغةٌ صوّاغـةٌ صِيَغاً بِدَعاً لم تُلقَ في خَلَدِ .
* قلتُ إن تُغلَبوا بِغالبِ مغلو بِ فحَسْبي بغالِبِ الغَلَّابِ .

الا ان هذه ادخل في باب ترديد الالفاظ ، وهو كثير في شعر ابن الرومي (ديوان ١٣٥) :

إن من أضعف الضِعاف لدى الله قويًا يستضعف الضُعَفـاءَ .

(وثانيها) صِيَغ نادرةٌ من افعال مشهورة (ديوان ٣٩، ٨٢ ، ٨٧، ٢٨١)[1] :

* من كل دانيـةِ الجَنى للطـير فيهـا (قرقرير)
* انتَ (جِدِّيُها) وغيرُك من يَلـ عَبُ ؟ ان الرجالَ غيرُ النساء .
* ولَوافاكَ كي (تُمَهْرِجَ) فيه، غيرَ أنْ ليس ذاك في الإمكان .
فأبق واسامْ . وهذه دعوةٌ يحـ ظى (بمرجوع) نفعها الثقلان .

(وثالثها) كلمات أعجمية كان الأعراب يتملّحون بإدخالها في الشعر (ديوان٨٥).

أعجميٌّ (آيينه) عربي مجده ينتمي الى عدنان .
* إلّا سليمانَ الذي في رَمْسه اسد و(شير)[2]

(ورابعها) الروابط التي ليست في العادة من كلام الشعر والشعراء ، ولكن ابن الرومي « يأتي بها ليربطَ ما تقدم بما تأخر » من كلامه (ديوان ٨٥ - ٨٦) :

(فبِحقٍ أقولُ) إنّ من الاحسا ن إصلاحَ آلةِ الإحسان
(وبما لا تزال) تقذَى إلى ان تتجـلّى فصاحةُ الإخوان
(بل لِأنَّ) السّماع والشعر قِدْماً بالنـدى آمران مُؤتَمِران

(١) راجع امراء الشعر ٢٤٢ - ٢٤٣ .
(٢) آيين: آداب، سلوك ملوك الفرس، تمدن. شير : أسد. راجع في ذلك البيان والتبيين١ : ١٣١

(٢) تراكيبه = الغالب على تراكيب ابن الرومي السهولة، وهي اقرب الى اللين والضعف منها الى المتانة الجاهلية (ديوان ٥٠٥) :

كاذيال خَوْدٍ أقبلت في غلائلٍ ... مُصَبَّغَةٍ (والبعضُ أقصرُ من بَعْضِ)

اما الركاكة البادية فتراها في بعض شعره المتكلّف (ديوان ١٥٣، ٤٧٠ — ٤٧١) :

* غَفلةٌ فوق غفلةٍ ثم سَهواً ... فوق سهوٍ، عَدِمْتُهم أذكياء
* حتّامَ يابائسَ الدنيا، تُؤَخِّرني ... وإنني لَنظيرُ الصَدرِ لا الكَفَلِ .
لكل قومٍ رسومٌ انت راسِمُها ... ولستُ فيهم بذي رَسْمٍ ولاطلل.
لا في التِجارِ ولا العُمّال تَنصِبُني ... وإنني لَقليلُ المِثْل والبَدَلِ .

وليس هذا بِدعاً، فلقد رأينا ان ابن الرومي يطلب المعنى ثم لا يبالي اين يقع هذا المعنى من سوء التركيب . ثم هو يردد الكلام حتى يُمَلَّ ترديدُه — وهذا من عيوب ابي العتاهية البارزة ايضاً ومما كثر في الشعر المُحدَثِ — قال ابن الرومي (ديوان ٣٦٦) :

سليم الزمانِ كمنكوبه ... ومَوْفوره مثلُ محروبهِ
وممنوحه مثل ممنوعه ... ومكسوُّه مثل مسلوبه
ومحبوبه رهنُ مكروهه ... ومكروهه رهن محبوبه
ومأمونه تحتَ محذوره ... ومرجوّه تحتَ مرهوبه
وريب الزمان غداً كائنٌ ... وغالبُه مثل مغلوبه
فلا تهرُبَنَّ الى ذِلة ؛ ... ذليل الزمان كمنكوبه

(٣) صناعته = ابن الرومي (ت ٢٨٣) معاصر للبحتري شيخ الصّناعة (ت ٢٨٤)؛ غير انك اذا قرأت ديوان ابن الرومي لا تلحظ فيه صناعة إلا ان ينبه احد عليها امامك . والظاهر ان ابن الرومي كان يقبل التصنيع اذا جاءه عفواً، من اجل ذلك كان يتفق له التصنيع الجيد المحكم والتصنيع العادي المبتذل . وقد اصاب العقاد (ص ٣٢٥) حينما جعل الصناعة عند ابن الرومي قليلة لا تَطَلُّبَ فيها، وانه كان لا يَقصِدُ بها التزويقَ في اكثر الاحيان بل العَبث والهزل كقوله في الهجاء (ديوان ١٠٦) :

لو تلفّفتَ في (كِساء الكِسائي) وتلبّست (فَروة الفرّاء)،
(وتخلّلتَ بالخليل) واضحى (سِيبويه) لديك رهنَ (سِباء)،
وتكونت من (سَواد ابي الاسـ ـود) شخصاً يُكنّى أبا السوداء،
لأبى اللهُ ان يَعُدّك اهلُ العلـ ـم إلّا من جُملةِ الاغبياء!

ولكنه احياناً يقصد التصنيع ويصيب ولكن لا يجيد (ديوان ١٥٢):

حرّقتهم وأرّقتهم ولا زا لت وَبالاً عليهمُ ووَباء

(٤) العذوبة والسهولة = على ان شعر ابن الرومي سهل عذب يعذُب في الاذن ويسهل على اللسان (ديوان ١٧٧):

شاب رأسي، ولاتَ حِينَ مشيبِ وعجيب الزمان غير عجيب!
قد يَشيب الفتى، وليس عجيباً أنْ يُرى النَّوْرُ في القضيب الرطيب.

(٥) اوزانه وقوافيه = يذهب ابن الرومي مَذهَبَ السهولة والعذوبة في الاوزان والقوافي، فأوزانه في الاكثر قصيرة مطربة، وهو شديد الحب للبحر الخفيف:

يا خليليَّ تيمّتني وحيدُ ففؤادي بها مُعَنّى عميدُ
فاعلاتن (مفاعلن) فاعلاتن (فَعِلاتن مفاعلن) فاعلات

نظم منه اكثر قصائده الطِوالِ الجياد.

وكذلك كان شأنه في اختيار القوافي، يختار منها ما خَفّ وعَذُبَ، إلّا انه كان اذا أطال اضطر الى إدخال بعض القوافي النابية (ديوان ١٥٤):

ليَ في درهمين في كل شهر من فِئام ما يَطرُد الحوجاء.
او فرَغما له هناك ودَغما ألحَمَ الله أنفَه البَوغاء [1].

وابن الرومي يحتج لطلب الاوزان السهلة والقوافي «الرخيصة» بأنه ينظر أوّلاً الى «فنون المعاني»، وهذه تتطلب تلك فهو يقول عن قصائده (ديوان ٨٧):

(١) الحوجاء: الحاجة. البوغاء: التراب.

إن تَكُنْ سهلةَ القوافي فليست ... في المعاني بسهلةِ الوُجدان .
فأبسُطِ العُذرَ في ارتخاصِ القوافي ... واتّباعي سُهولةَ الاوزان .
أنتَ ألجأتني إلى ما تراه ... بالذي فيكَ من فُنون المعاني .

(٦) طول النَّفَس = قال ابن رشيق (العمدة ١ : ١٦٤) : وكان ابن الرومي يقصِّد فيجيد ، ويطيل فيأتي بكل احسان ، وربما تجاوز حتى يُسرف في طول القصيدة) . . . مع انه هو القائل :

وإذا امرؤٌ مدح امرأً لنَواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءهُ .
لو لم يقدِّرْ فيه بُعْدَ المستقى ... عند الوُرود لما أطال رِشاءه .

وقد نظم ابن الرومي بضعَ قصائدَ مُطوَّلاتٍ أطولُها ، فيما أحسَبُ ، في استعطاف القاسم بن عُبيد الله فانها تبلغ مائتين بيتاً وبيتين (ديوان ١٤٧ — ١٥٨) :

أيُّها القاسمُ القسيمُ رُواءً ... والذي ضم ودَّه الاهواءَ !

وكذلك لها المقاطع (القصار) البديعة [١] .

فنون شعره

ابن الروميّ شاعر مُكثِرٌ ، ولعل ديوانه أعظمُ ديوانٍ وصل الينا . إلا ان القسم الأوفر منه لم ينشر بعد [٢] . ثم ان شعر ابن الرومي ، كما رأينا ، متعدد الأغراض

(١) ابن خلكان ٢ : ٤٤٩ .

(٢) يذكر غست Rhuvon Guest (ص ٥٠ ـ ٥٤) مخطوطات شعر ابن الرومي والمطبوع من شعر ابن الرومي . وهو يقدر ان مخطوطة القاهرة يمكن ان تضم ستة وعشرين الف بيت . ومثلها مخطوطة استانبول (ص ٥٢) . على ان شعر ابن الرومي اكثر من ذلك . اما في المطبوع فيعد غست الجزء الذي اخرجه الشيخ محمد شريف سليم (القاهرة ١٩١٧) ويمتدحه ، ثم يذكر مختارات كامل كيلاني من شعر ابن الرومي (القاهره ١٩٢٤) ويشير الى ما فيهـا من اهمال في الاختيار وفي الطبع . ثم هو يذكر المختارات التي ألحقها عباس محمود العقاد بكتابه القيم « ابن الرومي ، حياته من شعره » (الطبعة الاولى ، القاهرة ، نحو ١٩٣٠) . ومختارات العقاد شبيهة بمختارات كامل كيلاني من حيث الفنون ولكن تفضلها في العناية بالطبع (ص ٥٣) .

ولقد فات غست ان يذكر ان الشاعر الكبير محمود باشا سامي البارودي المتوفى سنة ١٣٢٢ للهجرة (نحو ١٩٠٢ م) قد جمع في «مختاراته» (القاهرة ١٣٢٩ هـ = نحو ١٩٠٩ م) لابن الرومي ٣٧٣٢ بيتاً احسن نمطا وعناية مما في مجموعة كامل كيلاني .

كثير الفنون ، وفنونه ألصقُ بالحياة من فنون غيره . فابن الرومي من الذين يرون كل شيء حولهم بما يجول في نفوسهم ، فهو اذن شاعر وجداني حق .

١ — فخره : عيَّر اناسٌ ابنَ الرومي باصله وعابوا عليه شعره فانقلب يفتخر باصله الرومي الفارسي وبولائه في بني العباس وبشعره :

* كيف أغضي على الدَّنيَّة والفر — س خؤولي والروم أعمامي !
* قد تُحسِنُ الرومُ شِعراً — ما أحسنته العُريبُ .
* شِعْرِيَ شِعْرٌ ، اذا تأمّله الانـ — سانُ ذو العقل والحجا عَبَدَه .
* هاكَها ، لا أقولُ ذاكَ مُدِلاً — قولَ ذي نَخْوَةٍ بها وأمتنانِ .
بينَ أثنائها مديحٌ نفيسٌ — من لَبوسِ الملوك والفرسان .
إنْ تكن سَهلَةَ القوافي فليست — في المعاني بسهلةِ الوُجدان .

٢ — مدحه وعتابه لم ينل ابن الرومي حظوة عند الممدوحين مع كثرة مدائحه . ولم يكن الذنب في ذلك ذنبَ الزمن بل كان ذَنبَه هو . فبينما كنت ترى البحتريَّ ينالُ الاموال على مدائحه كنت تجد ابنَ الروميَّ محروماً منها : إنَّ أبْنَ الرُّومِيِّ جَهِلَ ٱلطَّرِيقَ إلى عَقْلِيَّةِ ٱلْمَمْدُوحِينَ وَعَرَفَهَا ٱلبُحْتُرِيُّ .

امتاز مديح ابن الرومي بثلاثة عناصر ، كلُّها غريب عند الممدوحين :

(أ) التحليل العقلي الصادق ، فكأن ابن الرومي أراد ان يجيد تصوير نفس الممدوحين ، بينما كان الممدوحون يحبون الإطراء والألفاظ الرنانة .

(ب) وكان همَّ ابن الرومي — فيما يظهر — ان يجعل كل قصيدة في المديح موضوعاً او موضوعات نفسية او عقلية او وصفية ، فاذا قرأت له قصيدة مطوَّلةً في المديح لم تجد فيها سوى بضعة ابيات تتعلق بالممدوح ، وأمّا ما تَبَقَّى فموضوعات لاصلة للمدوح بها .

(ج) وكان ابن الرومي مقتصداً في الصفات التي يخلعها على الممدوح ومحتاطاً في إيرادها ، فلم يَسُرَّ الممدوحين — وان كان قد بالغ في بعض قصائده في مدحهم — يمثل ذلك كله (مختارات البارودي ١ : ٢ : ٤٠) :

قالوا : « ابو الصقر من شَيْبانَ » ، قُلتُ لهم :

« كَلّا لَعَمري ، ولكنْ منه شَيْبانُ ! »

وكم أبٍ قد علا بآبن ذُرَى شَرَفٍ كما علا برسولِ اللهِ عَدْنانُ .

تسمو الرجالُ بآباءٍ ، وآوِنَةً تسمو الرجالُ بأبناءٍ وتُزدان .

ولم أُقَصِّرْ بشَيْبانَ ٱلتي بَلَغَتْ بها المُبالِغَ أعراقٌ وأغصان .

قومٌ سَماحَتُهُمْ غَيْثٌ وَنَجْدَتُهُمْ غَوْثٌ وَآراؤهم في الخَطْبِ شُهْبانُ .

ولقد ظَنَّ اسماعيل بن بلبل، وهو من قيلت فيه هذه الابياتُ، ان ابن الرومي هجاه ولم يمدحه ، فغضب عليه من اجل ذلك .

اضف الى ذلك ان بعض الممدوحين كانوا ينفُرون من ابن الرومي لسوء مخالقته وطِيَرَتِهِ وطول لسانه ، وكل ذلك ظاهرٌ في شعره : لقد كان ابن الرومي ملحاحاً مُلحفاً في طلب المال من الممدوحين . وكان يغضب من اقل بادرة ويعاتب عتاباً فيه جَرْحٌ وفيها غَمْزٌ وتهديد ؛ قال يعاتب محمد بن عبد الله (مختارات البارودي ١ : ٣٤٧) :

الا ليت شعري ، لِمْ مَطَلْتَ مَثُوبتي ولم تُؤْتَ من بُخْلٍ ولم تؤت من عُسرِ ؟

إخالك ، إذ جَوّدتُ فيك مدائحي ، منعتَ ثوابي حاسداً لي على شعري !

تَذَكَّرْ ، هداك اللهُ ، أنِّيَ مادحٌ وأنّكَ ممدوحٌ فلا تَعْدُني قَدْري .

على ان له عتاباً جيداً ايضاً اثنى عليه ابن رشيق (٢ : ١٥٥ — ١٥٦) ، الا ان فيه ايضاً تعريضاً :

فيا لك بحراً لم أجِدْ فيه مَشْرَباً وإنْ كان غيري واجداً فيه مَسْبَحا .

مديحي عصا موسى ؛ وذاك لِأنّني ضربتُ به بَحْرَ النّدَى فَتَضَحْضَحا .

سأمدَحُ بعضَ الباخلين لعلّه إذا اطّرد المِقْياسُ أنْ يَتَسَمَّحا !

ولم يستفد ابن الرومي من قساوته في العتاب وجفاء طبعه ، على الرغم من جودة

عتابه احياناً [١]، لذلك كان كثيراً ما يسلك سبيل الاعتذار. ويظهر على اعتذار ابن الرومي نَفَسُ النابغة بوضوح :

أتاني بظَهرِ الغيبِ أنك عـاتبٌ ، وتلك التي رَحْبُ الفضاء لها ضَنْكُ [٢].

وذلك بلا ريب قول النابغة يعتذر الى النعمان ويتذلل بين يديه :

أتاني ، أبَيْتَ اللعنَ ، أنك لُمتَني وتلك التي أهتمُّ منها وأنْصَبُ [٣].

٣ . رثاؤه رثاء ابن الرومي قسمان : قسم قاله الشاعر في اهله ، وقسم قاله في غير اهله ؛ فأمّا هذا الأخيرُ ففيه تكلُّفٌ كثير وهو مجرد من العاطفة، كقوله في رثاء محمد بن عبد الله بن الطاهر :

إنّ المنيـةَ لا تُبقي على أحـدِ ولا تَهابُ أخا عِزّ ولا حَشَدِ .
هذا الأميرُ أتَتْهُ وهو في كَنَفٍ كالليل من عُدد ما شِئتَ او عَدد .
لا تَبْعَدَنّ ، ابا العباس، من ملك ؛ وإنْ نَأَيتَ وإنْ اصبحت في البُعد .
عَجِبْتُ للشمس لم تُكسَفْ لِتَهْلِكِهِ وهو الضياء الذي لولاه لم تَقِدِ [٤].

واما رثاؤه في اهله فشعر صحيح فيه عاطفةٌ ولَوْعة ، وفي اثنائه تحليل بارع . وابن الرومي في رثائه هذا يحلل ما يشعر هو به في ساعة الرزء وبعدهـا : ان رثاءه صورة صادقة لنفسه في الدرجة الاولى ثم الميت في الدرجة الثانية .

والعجيب ان فن ابن الرومي يتغلب على عاطفته حتى في رثاء اولاده ، فإنك اذا قرأت مَرْثِيَتَهُ في أبنه الاوسط – وهي أَجلُّ مراثيه – رأيت العبقرية الفنية تَطغَى على عاطفة الأُبُوّةِ . فبعد ان يصِفَ الشاعرُ المرضَ الذي أَودى بحياة لولد يرجع الى نفسه فيحلل ألمها ثم ينثني الى نظراتٍ فلسفية في الحياة والموت . وقد بدأ ابن الرومي القصيدة بخطاب عينيه (ديوان ٢٩ – ٣١) :

---

(١) راجع العمدة ٢ : ١٥٥ – ١٥٦ .
(٢) F. Guest 107,108
(٣) خمسة شعراء جاهليين ص ٤٨ ، راجع ٤٩ .
(٤) وقد يقد (من باب ضرب يضرب) : اشتعل .

بكاؤكما يشفي وان كان لا يُجدي ، فجُودا فقد أَوْدى نظيرُكما عندي [1] .
ألا قاتلَ اللهُ المنايا ورَمْيَها من القوم حَبَّاتِ القلوب على عمد .
تَوَخّى حِمامُ الموت أَوْسطَ صِبْيَتي ، فلله كيف اختار واسِطَةَ العِقد [2] ؛
على حينَ شِمتُ الخيرَ من لَمَحاته وآنستُ من أفعاله آيةَ الرُّشْد .
طواه الرَّدَى عني فأضحى مَزارُه بعيداً على قُرب قريباً على بُعْدِ !
لقد أنجزتْ فيه المنايا وعيدَها ، وأخلفَتِ الأيامُ ما كان من وعد .
لقد قلَّ بينَ المهدِ واللحدِ لُبْثُه فلم ينسَ عهد المهد اذ ضُم في اللحد .
ألَحَّ عليه النَّزْفُ حتى أحاله الى صُفرة الجاديّ عن حمرة الورد [3] .
وظلَّ على الأيدي تَساقطُ نفسُه ؛ ويذوي كما يذوي القضيبُ من الرَند [4] .
فيا لكِ من نفسٍ تَساقَطُ أنفُساً تَساقُطَ دُرّ من نِظام بلا عَقد [5] .
عَجِبْتُ لقلبي كيف لم ينفطرْ له ولو أنّه أقسى من الحجر الصَلْد .
وما سرَّني ان بعْتُه بثوابه ولو أنه التخليدُ في جنة الخُلد .
ولا بِعْتُه طَوْعاً ولكن غُصِبْتُهُ ؛ وليس على ظُلم الحوادث من مُعْد [6] .
وإني وان مُتِّعتُ بابْنَيَّ بعدَه لَذاكِرُه ما حنَّت النِيبُ في نجد [7] .
واولادُنا مثلُ الجوارح ، أيُّها فَقَدْناه كان الفاجعَ البَيِّنَ الفَقْدِ [8] .
لكلٍ مكانٌ لا يَسُدُّ اختلالَه مكانُ أخيه من جَزوع ولا جَلْد [9] .

---

(١) يجدي : يفيد . نظيركما : شبيهكما .
(٢) توخي : طلب . واسطة العقد . اللؤلؤة الكبرى التي تكون في اوسط العقد .
(٣) النزف : نزيف الدم من الجسم . الجادي : الزعفران .
(٤و٥) يتلاشى ويقترب من الموت شيئاً فشيئاً ، كما تتساقط حبات اللؤلؤ من سلكها (خيطها) اذا لم يكن معقوداً ، فانها تضيع حبة حبة حتى تضيع كلها .
(٦) معد : ناصر ، معين . هذا البيت والذي يليه مأخوذان من قول جرير في رثاء ابنه :
قالوا : نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي. الخ
(٧) النيب جمع ناب : الناقة . حنت النيب : صوتت (وصوت النياق لا ينقطع في نجد) .
(٨) الجوارح : الاعضاء كالايدي والارجل والعيون ... الخ
(٩) الجزوع : الحزين ، الكثير التأثر . الجلد : الصبور ، المتحمل للمصائب والمشاق .

هل العَينُ بعدَ السَّمعِ تَكفي مَكانه — أم السمعُ بعد العين يَهدي كما تَهدي ؟
لَعَمري لقد حالتْ بِي الحالُ بعدَهُ ، — فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي !
ثَكِلتُ سُروري كلّه إذ ثَكِلتُه — وأصبحت في لَذَاتِ عيشي أخا زُهد .
أرَيحانــةَ العينينِ والانفِ والحشا ، — ألا ليتَ شعري هل تغيَّرتَ عن عهدي ؟
سأسقيكَ ماء العين ما أسعَدَتْ به (١) ؛ — وإن كانتِ السُقيا من الدَّمع لا تُجدي .
أعَينَيَّ ، جُودا لي فقــد جُدتُ للثرى — بأنفَسَ ممــا تُسألانِ من الرِفــد .
كأنّيَ — ما استمتعتُ منك بضَمَّةٍ — ولا شمّةٍ في ملعبٍ لك او مهــد .
ألامُ لمــا أبدي عليك من الأسى ، — وإني لأُخفي منك أضعافَ ما أبدي .
محمّــدُ ، مــا شيءٌ تُوُهِّمَ سَلوَةً — لقلبيَ إلّا زاد قلبي من الوجــد ،
أرى أخَوَيكَ الباقيَــينِ كليهما — يكونان للأحزان أورَى من الزَّند (٢) .
إذا لَعِبــا في ملعبٍ لك لَذَّعــا — فؤادي بمثل النار عن غيرِ ما قصدِ .
فمــا فيهما لي سَلوَةٌ بل حزازة (٣) — يَهيجانِها دوني وأشقى بها وَحدي .
وأنتَ وإنْ أُفردتَ في دار وَحشَةٍ — فإنّي بدار الأُنسِ في وحشة الفردِ .
عليــك سلامُ الله مــني تَحِيَّــةً — ومن كل غَيثٍ صادق البرق والرعد .

٤ . هجاؤه : ابن الرومي من اقدر الشعراء الهجائين في الادب العربي . واذا نحن اضفنا مقدرته الفنية في وصف العيوب والمساوىء الى هجائه اصبح — بلا نزاع — اقدر الهجائين كلهم . اما الاسباب التي حملت ابن الرومي على الهجاء فكثيرة ، منها ما يَشرَكُ فيه الشعراء كالسخط على الممدوحين الذين حرموه ، ومنافسة بعض الشعراء له ، ومضايقة بعض الذين ازعجوه ؛ ومنها ما هو خاص بابن الرومي كهجاء الذين يتطير منهم ، والذين اولعوا من هؤلاء بايذائه ، ثم هجاء الذين رفعهم « الحظ » في اعتقاده ، ثم هجاء الذين عابوا شعره من العامة او العلماء . وهكذا كانت اهاجي ابن الرومي كثيرة جداً .

---

(١) ساعدت ، سال دمعها .
(٢) اورى : اشد ايقاداً . الزند : حديدة تقدح بها النار من الحجر الصوان .
(٣) في الاصول التي رأيتها : حرارة ؛ والاصوب : حزازة : شيء يحز في النفس ، يؤلمها .

واما ميزات هجائه فكثيرة ايضاً، منها ان الوصف يغلب على هجائه ، ومنها ان هجاءه حضري في الدرجة الاولى. ان الهجاء البدوي — والجاهلي — كان اقرب الى العفة، وكان لا يتناول الا العيوب الخُلُقية (النفسية) كالجبن والبخل والتقاعس والذل ؛ اما الهجاء الحضري فتناول — في العصر العباسي خاصة — العيوب الخَلقية (الجسمية) كالعرج والحدب ، وبروز الانف والقبح وطول اللحية . وكان الهجاء البدوي — والجاهلي — اعف لفظاً، وكان لا يتعرض للاعراض؛ اما الهجاء الحضري والعباسي منه خاصةً فقد اصبح — منذ العصر الأُمويّ — كثير الإقذاع (الكلمات البذيئة) ، وكان يتعرض للاعراض اشد التعرض .

ولابن الرومي هجاء يجري في مُقَطَّعات قصارٍ جيادٍ ؛ ولكنَّ له اهاجيَ طوالاً لا يَقِلُّ بعضها في جودته عن اهاجيه القصار . وابن الرومي كثير الجرأة في مهاجمة الاعيان والحكام [1] حتى كان ذلك سبب مقتله [2] .

ويريد الاستاذ المقدسي ان ينكر على الذين جعلوا من هجاء ابن الرومي فنًّا او « هجاء فنيًّا » على الأصح . يقول الاستاذ المقدسي [3] : « فالهجاء الفنيّ يقتضي أمرين : الفكاهةَ أو الدُّعابة ثم حسن التصوير . فالأول يرفعه عن الخُشونة والإقذاع، والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة . . . ولا يُنكَرُ أنَّ في هجاء صاحبنا شيئاً من الدُّعابة وحسن التصوير ، ولكنَّ مُعظَمَه فاحش لا يرتفع الى ما نسميه فنًّا أدبيًّا » .

ولقد أصاب الاستاذ المقدسي فإن هجاء ابن الرومي ، على جودته واتِّساعه وإيلامه وعلى ما فيه من حسن التهكم والتصوير البارع ، يَنقُصُه التثقيف وينقصه الذوق أحياناً . وهكذا كان هجاء ابن الرومي يَنْحَطّ — في هذه الناحية — عن هجاء بشارٍ وعن هجاء ابي نُواسٍ خاصّةً .

على ان ابن الرومي كان ممن برعوا في التهكم على المَهْجُوّ والاستخفافِ به ، وهذا مما يُستَحسَن في الهجاء [4] .

---

(١) امراء الشعر ٢٣٥ . (٢) العمدة ١ : ٥٦ .
(٣) امراء الشعر ٢٣٥ . (٤) العمدة ٢ : ١٦٥–١٦٦ .

ومن أبيات ابن الرومي التي تجمع اكثر خصائصه في الهجاء هذه التي تلي :

* قَصُرَتْ أخادِعه وطال قَذالهُ فكأنه مُتَرَبِّصٌ أنْ يُصفَعا [1] .
وكأنما صُفِعَتْ قفاه مرّةً وأحسّ ثانيةً لها فتجمّعا .

* ان تَطُل لِحْيَةٌ عليك وتَعرُضْ فالمخالي معروفةٌ للحمير .
عَلّقَ اللهُ في عِذارَيْكَ مِخلا ةً ولكنها بغير شعير [2] .
لو غدا حُكمُها إليّ لطارت في مَهَبِّ الرياحِ كلَّ مطير .
لحيةٌ أُهمِلَتْ فسالَتْ وفاضتْ فإليها تُشيرُ كفُّ المشير .

* وَصَلْعَةٍ لأبي حَفصٍ مُمَرَّدَةٍ كأنّ صفحَتَها مِرآةُ فولاذِ [3] .
تَرِنُّ تحتَ الأكُفِّ الواقعاتِ بها حتى تَرِنَّ بها أكنافُ بَغداذِ .

* إنْ كُنتَ من جهل حقي غيرَ مُعتَذِرٍ اوكنتَ من ردّه مدحي غيرَ مُتّئِبِ [4] .
فأعطِني ثمنَ الطِرسِ الذي كُتِبَتْ فيه القصيدةُ او كفّارةَ الكَذِبِ !

* رَدَدتَ عليَّ مَدحِيَ بعد مَطْلٍ وقد دَنّستَ مَلبَسَه الجديدا .
وقلت : «امدَحْ به من شئتَ غيري» . ومن ذا يَقبَلُ المدحَ الرَّديدا !
ولا سِيما وقد أعبَقْتَ فيه مَخازِيَكَ اللواتي لن تَبيدا .
وما للحيّ في أكفانِ مَيْتٍ لَبُوسٌ بعدما مُلِئتْ صَديدا ؟ .

* يُقَتِّرُ عيسى على نفسِهِ وليس بباقٍ ولا خالدِ .
فلو يستطيعُ لِتَقتيرِهِ تَنَفَّسَ مِن مِنْخَرٍ واحدِ !

* لأبي يُوسُفَ بِنتٌ ا لَيْتَهُ أُعقِمَ ليتَهْ .
تُشبِهُ القِرْدَ أوِ الشيـ طانَ إنْ كُنتَ رأيتَهْ .
سأمَنّيها ذاتَ يومٍ بعضَ مَن يألفُ بيتَهْ .

---

(١) قالها في رجل احدب ؛ الاخادع عروق في جانبي العنق . القذال : مؤخر الرأس .
(٢) العذاران : منبتا الشعر على جانبي الوجه .
(٣) ممردة : مبلطة .   (٤) وأب يئب : استحيا .

أَزِنـاً وابنـةُ يعقـوبَ : أخـنزيـرٌ وَمَيْتـهْ !

* قَيْنَةٌ ملعونةٌ من أجلهـا رفض اللهو معاً من رفضَهْ .

تَضغَطُ الصوتَ الذي تشدو به غُصةٌ في حلقهـا مُعترِضه .

فاذا غنَّت بدا في جيدهـا كلُّ عرقٍ مثلَ بيتِ الإِرضه [1] .

* رُقادَك ، لا تسهرْ ليَ الليلَ ضِلَّةً ولا تتجشَّمْ فيَّ حَوكَ القصائدِ .

أبي وأبوك الشيخُ آدمُ تلتقي مناسِبُنا في ملتقىً منه واحدِ !

فلا تهجُني ، حسبي من الخِزيِ أنني وَإياك ضمتنـا وِلادةُ والـدِ .

٥ . وصف : رأينا في الكلام على خصائص ابنِ الروميِّ الفنيةِ أن الوصفَ يَغلِبُ على جميع فنونه ، وأنَّ الوصف اتسع حتى أصبح عنده فنّاً مستقلّا . ولقد أجاد ابنُ الرومي وصفَ الطبيعةِ بما فيها من حياةٍ وأشجارٍ وأطيار . وأجاد كذلك وصف المطاعمِ والمشاربِ والخمر ، واجاد وصف « البديعيات » : ما يتعلق ، بالقبح والجمال ؛ وحذِق وصفَ الالوان . على انه امتاز في وصفه بشيئينِ امتيازاً ظاهراً : انه وصف لنا « الحياة الدنيا » كالبُؤس والأطعمة والصناعاتِ العادية كقَلْي الزَّلابية وعملِ الرِقاق (الخبز) ؛ ثم انه كان ميَّالاً في وصفه — على ما استخرج العقاد — إلى تشخيص ما لا يَعقِل وإلى تجسيم الامور المعنوية . ويضرب العقاد مثلًا على ذلك ان الشاعر يخلع على « المهرجان » وعلى « النيروز » صفات البشر كقوله :

شبَّبَ المَهرَجانَ لُبْوُكَ فيه فغدا من غَطارفِ الشبانِ .

وكذاك النَيروزُ رُدَّ عليه بِكَ شَرْخُ الشبابِ ذي الرَّيعانِ .

وَلَدَ كُرْتَ ذا وذاك جميعاً سُنَنَ المُلكِ في بني ساسانِ .

عُمِّرا بُرهَةً على دين كِسرَى وَهُما الآنَ بعدَه مسلمان .

ثم اعتبر الأوصاف التالية التي تبرز فيها خصائص ابن الرومي بروزاً قوياً :

---

(١) الإرضة : دويبة تنسج حولها بيتاً غليظاً متعرجاً غير مستو النسج .

* حَيَّتْكَ عنَّا شَمالٌ طاف طائِفُها بِجَنَّةٍ نَفَحَتْ رَوحاً ورَيحانا .
هَبَّتْ سُحَيْراً فناجى الغصنُ صاحِبَه سِرًّا بها [1] وتداعى الطيرُ إعلانا .
وُرْقٌ تُغَنِّي على خُضْرٍ مُهَدَّلَةٍ تسمو بها وتَمَسُّ الأرضَ أحيانا [2] .
تَخالُ طائرَها نَشوانَ من طَرَبٍ ، والغُصنَ من هَزِّه عِطْفَيْهِ نَشوانا .

* صَفراءُ [3] تَنتَحِلُ الزُّجاجةُ لونَها فتَخالُ ذَوْبَ التِّبْرِ حَشْوَ أديمِها .
لَطُفَتْ فقد كادت تكونُ مُساغةً في الجوِّ مِثْلَ شُعاعِها ونَسيمِها .

* أما رأيتَ الدهرَ كيفَ يجري يُظْهِرُ ما أكْتُمُه من عُمْري .
بِأَحْرُفٍ يَخُطُّها في شَعْري ، يَمحو بها غَضَّ الشَّبابِ النَّضْرِ ؟
إذا محا سَطْراً بدا في سَطْرِ .

* ورازِقِيٍّ [4] مُخطَفِ الخُصورِ كأنّه مَخازِنُ البَلُّورِ ؛
قد ضُمِّنَتْ مِسْكاً الى الشُّطورِ ، وفي الأعالي ماءُ وَرْدٍ جُوري [5] .
لم يُبْقِ منه وَهَجُ الحَرورِ إلّا ضياءً في ظُروفِ النورِ .
لو انه يَبْقى على الدهورِ قَرَّطَ آذانَ الحِسانِ الحُورِ [6] .

* قطائفٌ قد حُشِيَتْ باللَّوْزِ والسُّكَّرِ الماذِيِّ حَشْوَ الموزِ .
تَسْبَحُ في آذِيِّ دُهْنِ الجَوْزِ سُرِرْتُ لما وَقَعتْ في حَوْزي .
سُرورَ عبّاسٍ بِقُرْبِ فَوْزِ [7] .

* ومُسْتَقِرٍّ على كُرْسِيِّهِ تَعِبٍ ، روحي الفِداءُ له من مَنْصِبٍ تَعِبِ [8] .

(١) بها : فيها ، في الجنية .
(٢) الورق جمع ورقاء : حمامة . الخضر جمع اخضر: غصن اخضر . مهدلة متدلية نحو الارض .
(٣) الخمر .
(٤) نوع من عنب الطائف طويل .
(٥) ورد منسوب الى مدينة جور في فارس ، وهو شديد الحمرة .
(٦) اتخذته النساء الجميلات اقراطاً (حلقاً) في آذانهن .
(٧) الآذي الموج ، والعباس هو الشاعر العباسي عباس بن الاحنف وكان شديد الكلف بحبيبته فوز . (٨) لعلها تعب ، بفتح العين ، على انها مصدر مستعمل نعتاً .

رأيتـه سحـراً يَقْـلي زَلابِيَـةً ... في رِقَّةِ القِشْرِ ، وَالتجويفُ كالقَصَب .
كأنما زَيْتُه المَقْلِيُّ حين بدا ... كالكيمياء التي قالوا ولم تُصِبِ :
يُلقي العجينَ لُجيناً (١) من أنامـله ... فيستحيلُ شبابيكاً من الذهب .

* ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ به ... يَدحو الرُّقاقة مثلَ اللمحِ بالبصرِ (٢) .
ما بين رُؤيتهـا في كَفِّهِ كُرَةً ... وبين رُؤيتهـا قَوراءَ كالقمرِ
الا بمِقْدارِ ما تَنداح دائِرَةٌ (٣) ... في صفحةِ الماء يُرمى فيه بالحجرِ .

* وقد نَشَرَتْ أيدي الجنوب مَطارفاً ... على الجو دُكْناً والحواشي على الارض (٤) ؛
يُطَرِّزُها قوسُ السحابِ بأخضرٍ ... على أحمرٍ في أصفرٍ إثْرَ مُبْيَضٍ .
كأذيالِ خَودٍ أقبلت في غلائلٍ ... مُصَبَّغَةٍ ، والبَعْضُ أقصرُ من بعض (٥) .

* يا ابْنَ حربٍ كَسَوْتَـني طَيْلَسـاناً ... يَتَجَنَّى على الرياحِ الذُّنوبا .
طيلسانٌ إذا تَنَفَّسْتُ فيـه ... صاح يشكو الصَّبا ويشكو الجَنوبا (٦) .
وتَهُبُّ الرياحُ مِنْ أَرْضِ غـيري ... فَتَهُبُّ الفُزورُ فيـه هُبوبا (٧) .
تَتَغَنّى إحـدى نواحيـه صوتاً ... فَتَشُقُّ الأُخرى عليه الجُيوبا (٨) .
فاذا ما عَـذَلْتُه قال : مَهلاً ، ... لا يكونُ الكريم الا طَروبا (٩) .

---

(١) فضة .
(٢) ما شرطية .انس ... أنس : فعل الشرط وجوابه . الرقاقة : الرغيف المستدير .
(٣) انداحت الدائرة : استدارت .
(٤) الجنوب : ريح الجنوب . المطرف : الثوب. دكن جمع ادكن : مغبر . ان ريح الجنوب أتت بسحاب ادكن ممطر ، له هيدب : يتدلى حتى يقترب من الارض .
(٥) الخود : المرأة الجميلة . الغلائل جمع غلالة (بالضم) : الثوب الرقيق الشفيف .
(٦) الطيلسان ثوب فاخر فضفاض من حرير . الصبا والجنوب هنا : ريحان خفيفتان .
(٧) الفزور (بالزاي ثم بالراء) الشقوق في الثوب خاصة .
(٨) الجيوب جمع جيب : فتحة الثوب عند العنق . وشق الثوب دلالة على الطرب — من الفرح او الحزن .
(٩) الطروب الذي يطرب ، يتأثر ، ينفعل .

وابن الرومي برع في وصف الطبيعة . ولكنّ بعض المتأدبين خاضوا في ذلك وافاضوا حتى كثر ذلك على ألسنتهم وأقلامهم ثم اوهموا غيرَ الحق . من اجل ذلك يحسن ان نعلم ان اغراض الشعر القديم قدِ اتسعت في العصر العباسي واصبحت فنوناً مستقلةً . ثم ان « الوصف » خاصة قد تقسم فنوناً كثيرة : ان وصف الخمر في الشعر القديم قد اصبح « خمرياتٍ » في العصر العباسي ؛ والغزل القديم كان قد اصبح فناً قائماً بنفسه منذ ايام عمر بن ابي ربيعة . وكذلك وصف الصيد ، بعد ان كان غرضاً من اغراض القصيدة الجاهلية عند النابغة والقصيدة الاموية عند الاخطل ، اصبح فناً مستقلاً يدعى في شعر ابي نواس «الطَرْدِيّات» . وهكذا نرى اننا اذا ذكرنا الوصف مُطلَقاً في العصر العباسي — عند ابن الرومي او عند غيره — فانما نعني وصف الطبيعة او ما يتصل بالطبيعة كوصف الرياض والمياه والابنية والالبسة والصناعات ، وهو ما نسميه بالوصف الحسي مما تراه في النماذج الآنفة .

٦ . التحليل : الوصف يتناول الموضوعات الحسية ؛ اما التحليل فيتناول الموضوعات المعنوية (المجردة) . ولقد برع ابن الرومي في هذا الباب من ابواب الشعر حتى حاز فيه الشُهرةَ والإجادة دونَ سائر الشعراء . ان وصف الغناء والإحاطةَ بأثرِ الحِقدِ اوِ الحسد في النفوس، والكلامَ في العُزْلَةِ عن البشر، ثم وصفَ الشيب والخِضابِ ووصفَ الزُهادِ والبَحْثَ في الصبر والكلامَ على الحظّ، كل هذا يدخل في باب التحليل.

قال ابن الرومي يحلل طبعه (ديوان ٨٩) :

شُكْرِي عَتِيدٌ [(١)] ، وكذاكَ حِقدي . للخيرِ والشرِ بقاءٌ عندي ،
كالأرض مهما اَستُودِعَتْ تُؤَدِّي . وأَيْنَ عن طِينَتِنا نُعَدّي [(٢)] !
أَحفَظُ للأعداء والأَوَدِّ ما اَستَوْدَعوا من بُغضَةٍ أَوْ وُدِّ !
ماذا يقول القائلون بعدي [(٣)] ؟

(١) عتيد حاضر مهيأ — انا اشكر الذي يحسن الي على الفور واحقد على الذي يسيء الي على الفور ايضاً .

(٢) مهما زرعت في الارض تحصد منها . نحن لا نستطيع ان نخالف طينتنا (طبيعتنا) .

(٣) لا آبه لما يقول الناس بعد ذلك !

وقال في الشيب والخضاب (ديوان ٣٩٧) :

رأيتُ خِضابَ المرء عند مَشيبِه ... حِداداً على شَرْخِ الشبيبة يُلبَس[1] .

وإلّا فما يغزو امْرُؤٌ بخضابِه ؛ ... أيطمَعُ ان يَخفى شبابٌ مُدلَّس[2] ؟

وكيفَ بأنْ يخفى المشيبُ لخاضبٍ ... وكلَّ ثلاثٍ صُبحُه يتنفَّسُ .

وهَبْهُ يواري شَيبَهُ ! أينَ ماؤهُ ... وأينَ أديمٌ للشبيبةِ أملَسُ ؟

ومن ابيات ابن الرومي المشهورة في هذا الباب ابيات في الوطن هي :

ولي وطنٌ آليتُ ألّا أبيعَه ... وألّا أرى غيري له الدهرَ مالكا .

عهدتُ به شَرْخَ الشباب ونعمةً ... كنعمةِ قوم أصبحوا في ظِلالكا ،

وحبَّب أوطانَ الرجال إليهمُ ... مآربُ قضَّاها الرجالُ هنالكا .

اذا ذكروا أوطانهمْ ذكّرتهمُ ... عهودَ الصبى فيها فحنُّوا لذالكا .

فأنظرْ كيف يحلل ابن الرومي صلة الانسان بوطنه وكيف يعلل هذا الارتباط على رغم ما يمكن ان ينال الانسان من وطنه احياناً من الاذى . انه لا يبيع وطنه مع ان قوماً نالوا فيه نعمة لم ينلها هو : عهدت به نعمة . . . كنعمة قوم اصبحوا في ظلالكا ؛ لقد كانوا غرباء ثم جاءوا الى بغداد فتنعموا بخيراتها (كالبحتري مثلا) .

٧ . النسيب : نسيب[3] ابن الرومي رقيق عذب شديد الاثر بادي الصدق :

أُعانقُها والنفسُ بَعـدُ مشوقةٌ ... اليها ؛ وهل بعدَ العِناق تَدانِ ؟

وألثِمُ فاها كي تزولَ حرارتي ... فيشتدُّ ما ألْقى من الهَيَمان[4] .

وما كانَ مِقدارُ الذي بي من الجوى ... لِيَشفِيَهُ ما تَلثِمُ الشَّفَتـان .

كأنَّ فؤادي ليس يَشفي غليلَه ... سوى أنْ يَرى الرُّوحَين يَمتزجان !

---

(١) شرخ الشباب : أوله .
(٢) يغزو : يبلغ ، يستفيد (؟) . شباب مدلس : شباب زور .
(٣) راجع الفرق بين النسيب والغزل : ابو نواس ج ١ (ط ٣) ص ٨٠ — ٨١ .
(٤) الهيمان : الحب .

* لا تُكثِرَنَّ ملامةَ العُشّاقِ ، فكفاهُمُ بالوجدِ والأشواقِ .
إنَّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ ؛ فاذا تَضاعَفَ كان غيرَ مُطاقِ .
لا تُطفِئَنَّ جوىً بلَومٍ ، إنه كالريحِ تُغري النارَ بالإحراقِ .
ما المُحِبِّ إذا تفاقَمَ داؤُه غيرُ الحبيبِ، يزورُه، من راقِ[1] .

ويظهر بوضوح ان النسيب في ديوان ابن الرومي قد اصبح فناً مستقلاً ، سواء أجرى في مقاطع مستقلة ام انطوى في قصائد المديح .

٨ . الغزل الموجود : ليس الغزل — على انه فنٌّ — كثيراً في ديوان ابن الرومي ، وليس له طابع خاص يميزه ؛ وإنما فيه براعة في الوصف والتحليل تخرجه من باب « الغزل » لتدخله في باب « الوصف » مثل قوله في وحيد المغنية :

غادةٌ زانَها من الغُصنِ قَدٌّ ومِنَ الظَّبيِ مُقلتانِ وجِيدُ ؛
وزهاها من فَرعِها ومن الخدَّ ينِ ذاكَ السوادُ والتَّوريدُ .

وكقوله في قَينة رومية (يونانية) :

من بناتِ الروم لا يَكذِبُنا لونُها المُشرِقُ عن مَنصِبِها .
فهيَ حَسْبُ العينِ من نُزهَتِها ، وهيَ حَسْبُ الأُذْنِ من مُطرِبِها[2] .
تَشرَعُ الالحاظُ في وَجنَتِها فتلاقي الرِّيَّ في مشرَبِها .
وإذا قامت إلى مَلعبِها — كمهاةِ الرملِ في ربربِها[3] —
سألت اردافُها أعطافَها هل رأتْ أوطأَ من مَركَبِها[4] .

ولابن الرومي غزل على طريقة بعض المتقدمين يجلو فيه اوصافاً مألوفة :

جاءت تَدافَعُ في وَشْيٍ لها حَسَنٍ تَدافُعَ الماءِ في وَشيٍ من الحَبَبِ[5] .

---

(١) راق : مداوٍ . رقاه : حاول ان يشفيه بالدعاء .
(٢) تكتفي العين بالنظر اليها، وتكتفي الأذن بسماعها (هي جميلة جداً وحسنة الصوت جداً).
(٣) المهاة : الغزال . الربرب : القطيع من الغزلان — هي اجمل ابناء جنسها .
(٤) العطف : جانب البدن . أوطأ : ألين ، اكثر إراحة .
(٥) تدافع : تتدافع : تهتز .

كالشمس ما سَفَرت والبدر ما نقبت . ناهيك من مُسفر حُسناً ومُنتقِبِ[1] !

ثم ان لابن الرومي غزلاً مذكراً لا يخرج عن انه « شيء من الوصف » ايضاً :

ليتَ شِعري ، أسحرُ عينيك داء ال قلب ام نارُ خدك الوهاج ؟

ايها الناس ، وبحكم ، هل مُغيثٌ لشجٍ يستغيث من ظلم شاجٍ[2] ؟

من مجيري من اضعف الناس ركناً ولعينيه سطوة الحجاج !

* وظبي له سحران : طرف ونغمة يجدّ بك الاغرام حين تعابثه[3] .

يُناغم أوتاراً فِصاحاً يروقنا تأنيه في تصرفيها وحثاحثه[4] .

ويلحظ ألحاظا مِراضا كأنها تغانج من يرنو لها وتخانثه[5]

فيصبيك بالسحر الذي في جفونه ويُصبيك بالسحر الذي هو نافثه[6]

اما مجونه في الغزلين وفي الهجاء خاصة فلم نعرض له هنا[7] .

---

(١) ما : ظرفية زمانية ، ما كانت : ما بقيت . سفرت : كشفت وجهها . نقبت : يقصد : ألقت على وجها نقاباً . وكالبدر ما نقبت اي كالبدر اذا ظهر من وراء السحاب الرقيق .

(٢) الشجي : المشغول بحب شخص ما ، المحب . الشاجي الذي يشغل الآخرين بحبه ، المحبوب.

(٣) طرف : عين ، جمال العيون . نغمة : جمال الصوت . اذا مازحته انقلب هذا المزاح جداً واصبح لك غراماً صحيحاً .

(٤) ناغم ، يقصد بها : رافق العزف على العود مثلا بالغناء . فصاح جمع فصيح : بين، ظاهر، واضح . حثاحث ، يقصد بها : الإسراع .

(٥) تغانج من يرنو له وتخانثه : تظهر له الدلال وتدعوه الى اللهو والتهتك .

(٦) أصبى : تيم ، شغف . نفث : نفخ . من عادة السحرة ان يعقدوا عقداً ثم ينفثوا عليها حتى يقيدوا المسحور بها .

(٧) يعرض Guest في ص ٥٧ ، ١٢٦—١٢٧ للكلام على أستعمال انواع الورق في الدولة العباسية كالقرطاس والصحائف والطرس والطومار ويستشهد على ذلك بابيات كثيرة . ولكن هنالك بيتين هما :

— والقراطيس خافقات بايدي هم كمرهوب خافقات البنود

— يلاحظ دنياه فأخلى متاعها طواميرها في عينه وشموعها .

هذان البيتان لا صلة لهما باكتشاف الورق ولا باستعماله ، وانما هما في الهجاء المنطوي عن أشد أنواع المجون .

٩ . الادب : الادب – او الحكمة – قولٌ يَرِدُ في الشعر ويَصْدُقُ في العقل أوِ الاختبارِ . وهو معروفٌ منذ الجاهلية . إلّا أنّ الحِكَمَ تَرِدُ عادةً « مُفْرَدَةً » ، كل فِكرةٍ في بيتٍ مستقل . ولقد ورد لِابن الرومي أبياتٌ في الادب متفرقةٌ في قصائدهِ (ديوان ٢ ، ٦ ، ١١ ، ٤٤ ، ١٤٧) :

* فما كلُّ مَنْ حطَّ الرحالَ بمُخْفِقٍ ، ولا كلُّ من شدَّ الرِحالَ بكاسبِ[1] .

أرى المرءَ مُذْ يَلقَى التُرابَ[2] بوجهِهِ ، إلى أنْ يُوارَى فيه ، رَهْنَ النوائبِ .

* ومُحالٌ أنْ يَسْعَدَ السُّعَداءُ الدهـ ـرَ إلّا بشَقْوَةِ الأشقياءِ .

* إنّ مَنْ لامَ جاهلًا لَطَبيبٌ يَتَعاطَى عِلاجَ داءٍ عَياءِ[3] .

* وإذا ما كَخابِرُ الناسِ غابَتْ عنكَ فاْستَشْهِدِ الوُجوهَ الوِضاءَ[4] .

ولكن ابن الرومي يميلُ أحياناً إلى معالجةٍ وافيةٍ لفكرةٍ واحدةٍ او فِكَراتٍ مُتقاربةٍ – على طريقته وأسلوبه – فتَجِدُ له مِثْلَ قوله (ديوان ١٣٩ — ١٤٠) : —

عَدُوُّكَ مِنْ صديقِكَ مُستَفادٌ فلا تَستَكْثِرَنَّ من الصِحابِ .

فإنّ الداءَ أكثرَ ما تراه يَحولُ مِنَ الطعامِ أوِ الشرابِ .

إذا انْقَلَبَ الصديقُ غدا عَدُوًّا مُبيناً ، والأُمورُ إلى انقلابِ .

ولو كان الكثيرُ يَطيبُ كانت مُصاحَبَةُ الكثيرِ مِنَ الصوابِ .

ولكنْ قلّما اسْتَكْثَرْتَ إلّا وقعتَ على ذِئابٍ في ثِيابِ .

فَدَعْ عنكَ الكثيرَ : فكَمْ كثيرٍ يُعافُ ، وكم قليلٍ مُستَطابُ !

وما اللُّجَجُ المِلاحُ بمُرْوِياتٍ وتَلْقَى الرِيَّ في النُّطَفِ العِذابِ .

على انه يجب ان نفرق بين « باب الادب » وبين « باب التعليل » .

(١) حط الرحال : بقي في بلده . شد الرحال : سافر . اخفق : خاب — ما كل من بقي في بلده افتقر ولا كل من سافر اغتنى .

(٢) مذ يلقى التراب بوجهه : من الوقت الذي يولد فيه .

(٣) الداء العياء : الذي لا دواء له . يتعاطى هنا : يحاول .

(٤) ثارت في العصور الوسطى قضية بين المتفلسفين في صلة الجمال بالاخلاق فنهم من زعم ان حسن الاخلاق تابع لجمال الوجه كما يقول ابن الرومي هنا .

وحيد المغنية

هذه القصيدة تجمع كثيراً من خصائص ابن الرومي في الغزل والنسيب والوصف والتحليل ، فهي من اجل ذلك وجدانية خالصة. ثم هي تمثل ابن الرومي تمثيلا صحيحاً وتعبر عن نفسه وتكشف عن كثير من نواحي خيبته في الحياة . انه لم يكن قليل الحظوة عند الممدوحين فقط ، بل في مجالس الانس ايضاً .

وتحسن الاشارة الى ان المصدر الذي اخذ منه عباس محمود العقاد في كتابه « ابن الرومي حياته من شعره » غير المصدر الذي اخذ منه كامل كيلاني في « ديوان ابن الرومي ». والعقاد احسن قراءة وضبطاً لهذه القصيدة الجيدة المهمة من كامل الكيلاني .

اما خليل تقي الدين وفؤاد افرام البستاني وواصف بارودي فقد نقلوا القصيدة الى كتابهم « الادب العربي في آثار اعلامه » ، نصوص منتخبة وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية — الجزء الثاني ، بيروت ١٩٣٥ ، عن كامل كيلاني . وقد نقلا اخطاء كامل كيلاني في قراءة هذه القصيدة ثم اضافوا اليها اخطاء من عندهم ايضاً .

وَأَمَّا ٱلْقَصِيدَةُ فَهِيَ :

يا خليليَّ ، تَيَّمَتْني وَحِيدُ ؛ ففؤادي بها مُعَنًّى عَميدُ (١) .

غادةٌ زانها مِنَ الغُصْنِ قَدٌّ ، ومِنَ الظَّبْيِ مُقْلتانِ وَجِيدُ (٢) .

وزَهاها ، من فَرْعِها ومن الخَدَّ يْنِ ، ذاكَ السوادُ والتَّوْريد (٣) .

أوقَدَ الحسنُ نارَهُ في وحيدٍ فوقَ خدٍّ ما شانه تخديد (٤) .

فهي بَرْدٌ بخدِّها وسلامٌ ؛ وَهْيَ للعاشقين جَهْدٌ جَهِيدُ (٥) .

---

(١) تيمتني وحيد : ذللتني بالحب . معنى : متعب ، حامل ما لا يطيق . العميد الذي هده العشق .

(٢) الغادة : المرأة الناعمة اللينة . القد : القوام . الجيد : العنق .

(٣) زهاها ... : جعلها زاهية ناضرة جميلة ، او متكبرة . الفرع : الشعر . السواد في الشعر والتوريد في الخد .

(٤) شانه : عابه . تخديد : تشقق .

(٥) برد وسلام : لا ضرر منه . جهد جهيد : تعب شديد . لعل الاصوب : في خدها

لم تَضِرْ قطُّ خدَّهــا وَهْوَ ماءٌ ، وتُذيبُ القلوب وهيَ حديدُ .
ما لما تَصطليهِ من وَجنَتَيها غيرُ تَرْشافِ ريقِها تبريد [١] .
مثلُ ذاكَ الرُّضابِ أطفأَ ذاكَ الـ وَجدَ ، لولا الإباءُ والتَّصريدُ [٢] .

*

وغريرٌ بحُسنِها قال : « صِفْها » . قلتُ : « أمرانِ ، بَيِّنٌ وشديد [٣] .
يَسهُلُ القَولُ إنَّها أحسَنُ الأشـ ياءِ طُرًّا ، ويَصعُبُ التحديد » .
شمسُ دَجنٍ ، كِلا المُنيرينِ من شمـ سٍ وبدرٍ من نورِها يَستفيدُ .
تَتَجلَّى للنــاظرين إلَيها ، فَشَقِيٌّ بحُسنِها وسعيــد .
ظَبْيَةٌ تَسكُنُ القلوبَ وتَرْعا ها ، وقُمرِيَّةٌ لها تغريد [٤] .
تَتَغنَّى كأنَّها لا تُغنـنِّي ، من سُكونِ الأوصالِ ، وَهْيَ تُجيد :
لا تراها — هناكَ — تَجحَظُ عَيْنٌ لكَ منها ، ولا يَدُرُّ وريد [٥] ؛
من هُدُوٍّ وليس فيه انقطاعٌ ، وسُجُوٍّ ، وما به تَبليد [٦] .
مَدَّ في شَأوِ صوتِها نَفَسٌ كا فٍ ، كأنفاسِ عاشقيها مَديد [٧] ؛
وأَرَقَّ الدَّلالُ والغُنجُ منه ، وَبَراهُ الشَّجا فكادَ يَبيدُ [٨] .

---

(١) الاصطلاء التعرض لحر النار (تصطلي انت) ترشاف : رشف : اخذ الماء بالشفتين قليلا قليلاً .
(٢) الرضاب : الريق ما دام في الفم . الإباء : التمنع . التصريد : الانقطاع .
(٣) الغرير ؛ الشاب الذي لا تجربة له . بين : ظاهر واضح . شديد : عسير ؛ في العقاد (ص ٣٥٢) «بين وشديد» .
(٤) ترعاها : ترعى فيها : تأكل منها . القمرية : الحمامة .
(٥) جحظت : برزت . الوريد : يقصد به الشاعر احد العروق الممتدة في العنق . لا يدر وريد : لا يمتلىء بالدم ، يتضخم (عند الغناء) .
(٦) هدو لعلها هدوء ، او لعل الهمزة حذفت منها للتوكيد مع سجو . السجو : مد الصوت بالغناء .
(٧) الشأو : هنا طول النفس في الغناء .
(٨) الشجا : البحة في الحلق تجعل في الصوت شيئاً من الحزن والشكوى . فكاد يبيد : كاد ان يخفى .

فَتَراهُ يَموتُ طَوْراً ويحيا ، مُسْتَلَذٌّ بسيطُه والنَّشيدُ [١] :

فيه وَشْيٌ وفيه حَلْيٌ ، من النغـ ـم ، مَصوغٌ يختالُ فيه القصيد ،

طابَ فوها وما تَرَجَّعُ فيه ا كلُّ شيءٍ لها بذاكَ شهيدُ [٢] .

ثَغَبٌ يَنقَعُ الصَّدى ، وغِناءٌ عنده يُوجَدُ السُّرورُ الفَقيدُ [٣] .

فلها — الدهرَ — لاثمٌ مُستَزيدٌ ، ولها — الدهرَ — سامعٌ مُستَعيدُ .

في هوى مِثلِها يَخِفُّ حليمٌ راجحٌ حِلمُهُ ، ويَغوى رشيد .

١٠ تُعاطي القُلوبَ إلّا أصابت بهواها منهن حيثُ تُريد [٤] .

وَتَرُ العَزْفِ في يَدَيها مُضاهٍ وَتَرَ الرَّجفِ ، فيه سهمٌ شديد [٥] .

وإذا أنبَضَتْهُ للشَّربِ يوماً أيقنَ القومُ أنها ستَصيدُ [٦] ،

مَعْبَدٌ في الغناء وابنُ سُريجٍ ، وَهيَ في الضَّربِ زَلْزَلٌ وعَقيد [٧]

عيبُها أنها إذا غنَّتِ الأحـ ـرارَ ظلُّوا وهم لَدَيها عبيد ؛

واستزادتْ قُلوبُهم من هواها بِرُقاها ، وما لديهم مَزيد [٨] .

*

وحِسانٍ عَرَضْنَ لي ، قُلتُ : « مَهْلاً عن وحيدٍ ، فحقُّها التوحيد .

---

(١) النشيد : رفع الصوت بالغناء . البسيط ؟ — المقصود : كل انواع غنائها لذيذة .

(٢) رجع (بتشديد الجيم) ردد الصوت .

(٣) ثغب ينقع الصدى : ماء يطفىء العطش ، يروي . يشبه غناءها للمعجبين بها بالماء للعطاش .

(٤) تعاطي : تغالب ، تناول ، تعامل . اذا غنت أسرت القلوب .

(٥) وتر العزف : وتر العود الذي يعزف عليه . مضاه : مشابه ؛ وتر الرجف ؟ — المعنى الملوح : اذا ضربت على وتر العود فكأنها تضرب على وتر القلوب .

(٦) أنبض القوس ، أو أنبض في القوس : حرك وترها لترن :— قبل العزف يحرك الضارب على العود أوتار العود ليعين طبقة الغناء .

(٧) تشبه في حسن الصوت معبداً وابن سريج ، وهما أشهر المغنين في العصر الاموي . وزلزل كان مشهوراً بالضرب على العود ، ومثله عقيد .

(٨) الرقى : السحر ، الجمال — الناس يحبونها لغنائها ، ثم هم يريدون ان يحبوها ايضاً لجمالها ، ولكن لا يستطيعون لأنهم منحوها كل حبهم اولاً لحسن غنائها .

حسنُها في العيونِ حسنٌ جديدٌ، فلها في القلوبِ حب جديد[1]».

*

ونصيحٍ يلومُني في هواهـا، ضلّ عنـه التّوفيقُ والتسديد.
لو رأى من يلومُ فيه لأضحى وَهْوَ لي المُـتَرِيثُ والمستَزيدُ[2].
ضِلّةً للفـؤادِ يحنـو عليهـا، وَهْيَ تَزهو — حياتَه — وتَكيدُ[3].
سحـرتَه بمُقلَتيهـا فأضحت، عنده، والذميمُ منهـا حميد.
خُلِقَتْ فتنَـةً، غنـاءً وحُسناً مـا لهـا فيها جميعاً نديد[4]
فهْيَ نُعمَى، يَبيدُ منها كبيرٌ، وَهْيَ بلوَى يَشيبُ منها وَليدُ.
لِيَ — حيثُ انصرفتُ منها — رفيقٌ مِن هواها، وَحيثُ حلّتْ قعيدُ[5]:
عـن يَميـني، وعن شِـمالي وقُـدّا مي وخَلفي، فأينَ عنه أحيد؟
سدّ شَيطانُ حبّها كلَّ فجٍّ؛ إنّ شيطـانَ حبّها لَمَريدُ[6].

*

لَيتَ شِعري — إذا أدام إليهـا كَرّةَ الطَرفِ مُبدِئٌ ومُعيد —[7]
أهيَ شيءٌ لا تَسأمُ العينُ منه أم لها كلَّ ساعـةٍ تجديدُ؟
بل هِيَ العيشُ لا يزالُ — متى استَـعرضَ — يُملي غرائباً ويُفيد[8].

---

(١) في العقاد (٣٥٣): وحيد (مرتين) مكان: جديد.
(٢) يطلب مني البقاء على حبها والزيادة فيه.
(٣) ضلة للفؤاد: ما أضله! ما اجهله! تزهو: تستخف به: حياته مفعول فيه: طول حياته.
كاده: مكر به، ضايقه.
(٤) نديد: شبيه، شريك.
(٥) القعيد: القاعد معك، لا يفارقك للمحافظة عليك.
(٦) الفج: الطريق الواسع في الجبل — لا أستطيع التخلص من حبها. مريد: شديد، قوي.
(٧) المبدىء هنا: الذي يراها لأول مرة. المعيد: الذي يراها للمرة الثانية او الثالثة، الخ.
كرة الطرف بفتح الكاف، وقـد اثبتها اصحاب الادب العربي في آثار اعلامه بضم الكاف وهو خطأ فاحش.
(٨) استعرض (صيغة مولدة): تصفح الشيء، رآه من اوله الى آخره.

مَنظَرٌ ، مَسْمَعٌ ، مَعانٍ من اللهو ، عَتادٌ لما يُحَبُّ عتيد [1] .
لا يَدِبُّ المَلالُ فيها ، ولا يُنْقَضُ من عِقْدِ سحرِها توكيد [2] .

*

أَخَذَ الدهرُ ، يا وحيدُ ، لقلبي منك ما يأخُذُ المُديلُ المُعيد [3] .
حظُّ غيري من وصلِكُم قُرَّةُ العينِ ، وحظِّي البُكاءُ والتسْهيد [4] .
غيرَ أَنِّي مُعَلَّلٌ منك نفسي بِعِداتٍ خِلالَهُنَّ وعيدُ [5] .
ما تزالين نَظْرَةٌ منك موتٌ لي تُميتُ ، ونَظْرَةٌ تخليد .
نتلاقى ، فلحظةٌ منك وعدٌ بوِصالٍ ، ولَحْظَةٌ تهديد .
قد تركتِ الصِحاحَ مَرْضَى يَميدونَ نُحُولاً وأنتِ خُوطٌ يميد [6] .
والهوى ، لا يزال فيه ضعيفٌ بينَ أَلحاظِه صَريعٌ جليد [7] .

(١) منظرها (جمال وجهها) ومسمعها (حسن صوتها) وما فيها من دواعي الانس ، كل ذلك عتاد (مؤونة ، غذاء ، حاجات ضرورية) عتيد (حاضر)

(٢) لا هي تمل من استهواء الناس بما فيها من سحر (من جمال وغناء) ، ولا يستطيع احد ان يتخلص من سحرها . — في ديوان — ك : ينفص بالصاد المهملة(ص ١٠٠) وهو وهم. وقد اخذه عنه اصحاب الادب العربي في آثار اعلامه ، ١٧٦ ، السطر الاول .

(٣) المديل المعيد : الله . اخذ الدهر منك لقلبي : انتقم الك منه . في العقاد (ص ٣٥٤) المديل المقيد : أقاد القاتل بالقتيل : قتله به . قراءة العقاد أصوب .

(٤) ينال غيري منك ما يشتهي ، وحظي انا منك البكاء والسهر .

(٥) العدات جمع عدة (بكسر العين وفتح الدال) : وعد . وقد وهم كامل الكيلاني فجعلها بعدآت (ديوان ابن الرومي ـ ك ١٠٠) وعنه اخذ هـذا الوهم خليل تقي الدين وفؤاد افرام البستاني في كتابهم الادب العربي في آثار أعلامه ـ نصوص منتخبة وفقاً لمنهاج البكالوريا اللبنانية ـ الجزء الثاني ، بيروت ١٩٣٥ ، ص ١٧٦ ، السطر الرابع .

واصاب العقاد (ص ٣٥٤) قراءة هذه الكلمة: بعدات . وكذلك قرأ العقاد «خلالهن» : خلا لهن بفتح الخاء ، اي سبقهن، لا خلالهن ، بكسر الخاء ، بمعنى في اثنائهن .

(٦) الصحاح جمع صحيح : القوي الجسم. يميدون :يضطربون في وقوفهم ومسيرهم من الضعف الذي ألم بهم من حبك ، بينما انت خوط (غصن ناعم) يميد (يميل من لينه وطرواته) .

(٧) الصريع : المغلوب ، المقتول . جليد : صبور ، محتمل للشدائد . — يكثر ان نرى في الهوى ان صاحبة الجسم اللين الناعم الضعيف تصرع بالحاظها الاشداء من الرجال .

ضافَني حُبُّكِ الغريبُ فأَلوَى بالرُّقادِ النسيبِ فهو طَريدُ [١] .
عجباً لي ؛ إنَّ الغريبَ مُقيمٌ بَيْنَ جَنْبَيَّ ، والنَّسيبُ شَريدُ .
قــد مَلِلْنا من سَتْرِ شيءٍ مليحٍ نَشْتَهِيهِ ، فَهَلْ لهُ تَجْـريدُ [٢] ؟
هُوَ في القلبِ ، وَهْوَ أبعــدُ من نَجْمِ الثُّرَيّا ، فَهْوَ القَريبُ البَعيدُ [٣] !

---

(١) ضافني : نزل علي ضيفاً . ألوى به (هنـا) : جحده اياه ، منعه . نزل حبك (وهو غريب عني) بقلبي ، فمنعني النوم مع ان النوم قريب للانسان ضروري له ، فشرد نومي .
(٢و٣) معنى هذين البيتين غامض . والملموح فيهما : أنا أكتم حبـك في قلبي ولكن أود ان أجرده (أعلنه) ، فهل استطيع ؟.. هذا الحب قريب مني جداً (لانه في قلبي) ، وبعيد عني كثيراً (لأنك انت لا تعطفين علي) .

نخبة من دراسات وكتب

الدكتور عمر فروخ

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي
استاذ الفلسفة الاسلامية والادب العربي
في كلية المقاصد الاسلامية في بيروت

دراسات قصيرة		الثمن بالقرش اللبناني
١ – الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	تحت الطبع
٢ – عمر ابن ابي ربيعه	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ – عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤
٤ – الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	تحت الطبع
٥ – ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠
٦ – احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	تحت الطبع
٧ – ابن خلدون		٥٠
٨ – اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفه الاوروبية		٢٥
٩ – شعراء البلاط الأموي		٧٥
١٠ – الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	تحت الطبع
١١ – اربعة ادباء معاصرين		٧٥
١٢ – خمسة شعراء جاهليين		١٥٠
١٣ – بشار ابن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ – نهج البلاغة		٥٠
١٥ – اخوان الصفا		٢٥٠
١٦ – ابن باجـه		١٠٠

دراسات قصيرة		الثمن بالقرش اللبناني
١٧ – ابن طفيل		١٢٥
١٨ – التصوف في الاسلام		٢٠٠
١٩ – الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب		١٥٠
٢٠ – موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية		١٠٠

دراسات أخر

ابو نواس : دراسة ونقد	(الطبعة الثالثة)	١٥٠
ابو نواس : مختارات		٥٠
ابو تمام		١ ٠
حكيم المعرة	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة		٣٠٠
الاسلام على مفترق الطرق	(الطبعة الثانية)	١٥٠
نحو التعاون العربي		١٠٠
دفاعاً عن العلم		(نفد)
دفاعاً عن الوطن		٥٠

600 — Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis zum Tode 'Umars, 1 - 23 d. H. (622 - 644 n. Ch. Leipzig 1937,